هاجر غنيات

جريمة قتل في كاتدرائية نوتردام الإفريقية

رواية

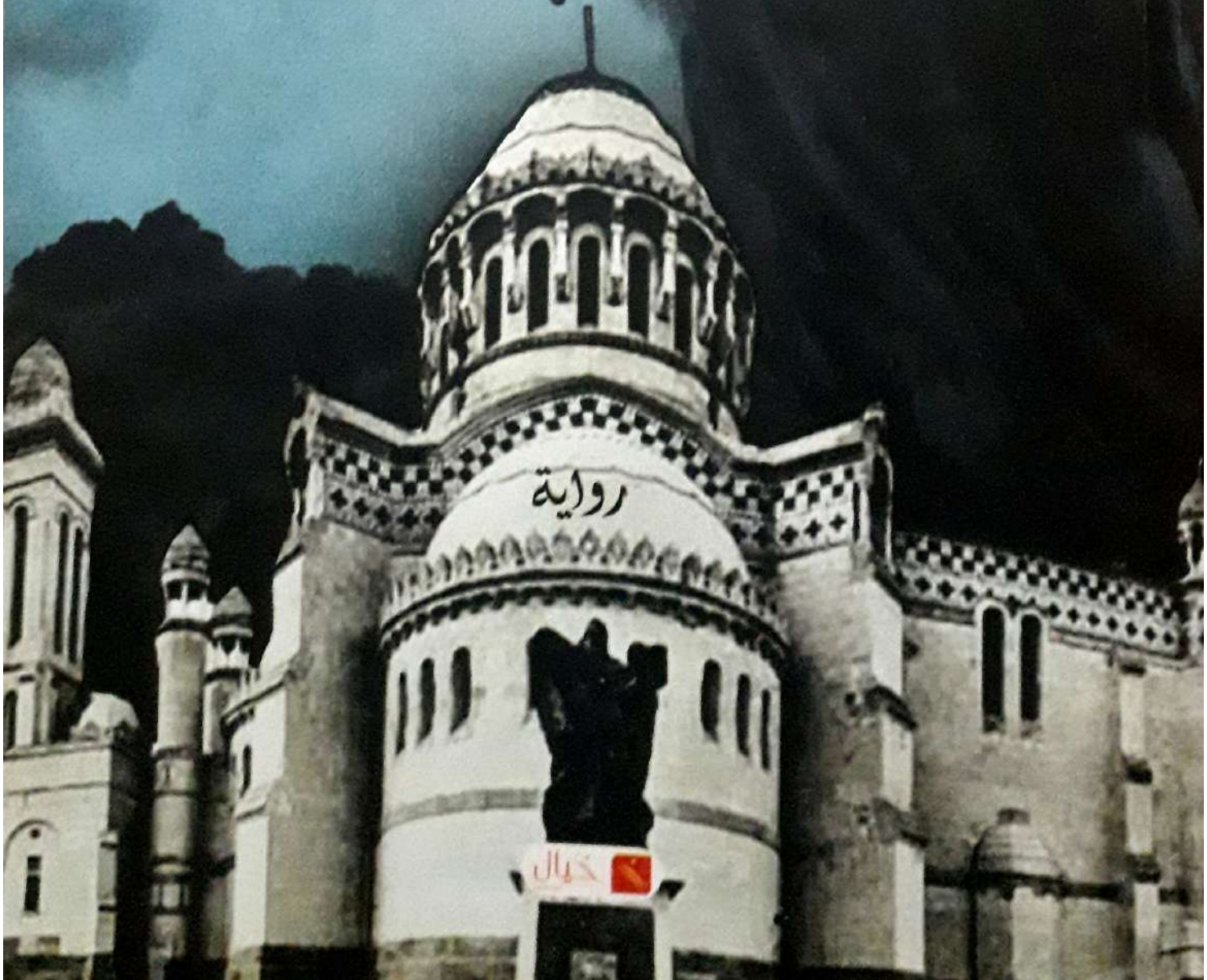

جريمة قتل
في كاتدرائية نوتردام
الإفريقية

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :978-9931-06-742-9
الإيداع القانوني : أفريل 2022.

غنيات هاجر

جريمة قتل

في كاتدرائية نوتروردام الإفريقية

رواية

يندرج هذا العمل ضمن أدب الجريمة، بغض النظر عن الأماكن المعروفة التي تعرضها الرواية، أو تم استخدامها تخيليا لأغراض روائية.

إن جميع الأسماء والشخصيات والأحداث التي ذكرت نتاج مخيلة المؤلفة، وأي تشابه مع الأحداث أو الأشخاص فهو بمحض الصدفة.

"في كل مكان يكمن الشر، فالنفس البشرية تميل إلى الهوى عندما تعبث برأسها قلة الحيلة.

البداية

في مكان ما، في صحراء إفريقيا الشاسعة مترامية الأطراف، كالسجاد الحريري الأصفر...

وقف بثبات منتصب القامة كأعواد النخيل القابعة في الصحراء، منتظرة من يتظلل ببرودتها من تحت خيمته التي تكسوها الرمال المتناثرة هنا وهناك، مثلما يكسو الفارس حصانه باللجام ليستعد امتطاءه. الرمال التي تراكمت في بيته المؤقت منذ شهر الآن بفعل الرياح الخفيفة التي تهب في كل حين، كالطفل الصغير الذي يطلق صرخة باكية عند ملاحظته لانشغال أمه عنه، يدخن غليونه في سلام تام وهو يشاهد غروب الشمس مثل لوحة زيتية، تكمل على الانتهاء وهو رسامها الذي لا يمل من تأملها أبدا، كأنك تراه حاجزا مقعدا في الأوبرا يتفرش فيه ليتذوق الفن الأرستقراطي، ليقطع عنه دقائق السكون التي ظن أنها لن تنتهي إلى أبد الآبدين، أحد أو شخص ما دخل الخيمة، وقاطع عنه هدوءه، وهو يقول:

- سيدي، لقد اكتملت الحمولة. بنبرة فيها كل الجدية والصرامة، قرر أن يباركه بكلامه، يدير له نصف رأسه من الجهة اليمنى، وينطق قائلا: يمكنكم الإقلاع إذا،

وهو يشيربقبضة يده، رافعا أصبعيه: السبابة والوسطى له، كالتي يقوم بها الحكم ليعلن عن إشارة انطلاق سباق ما، ليعاود إعطاء جل وقته من جديد لنوم الشمس، التي تغرب ببطء كأنها أعواد ثقاب توشك على الانطفاء، لتعلن سيادة الليل من جديد. انبسطت أساريره التي كانت منذ ثانية فقط توجس لك أنها خلقت لقيادة جيش، لأنه في هذه المرة هو متؤكد من أنه لن يقاطع من طرف أي أحد أو كائن عن تؤملاته، وعزلته كالناسك المتعبد الذي يلقى في الزهد صفحات حياته.

فوق سفح جبل شاهق، وفي أعالي منطقة هادئة تم بناء هذه التحفة المعمارية التي تعانق السماء بيدها، والتي تطل فوق منحدر على المدينة الساحلية للبحر الأبيض المتوسط المعروفة قديما بسانت أوجان نسبة إلى القديس أوجان... أما اليوم فالمدينة تلقب باسم بولوغين، التي بنيت إبان حكم البايات العثمانيين لموقعها الاستراتيجي المتخصص بحماية القصبة من الغزاة. للمرة الأولى يخيل لك أنك ترى قلعة ما أثرية تعود إلى الزمن الغابر، زمن اللوردات والفرسان والدوقات، ولكنها لم تكن سوى كاتدرائية السيدة الإفريقية أصالة عريقة، تحكي عن تاريخ هذه الأرض التي تأبى أن تندثر بالرغم من الحملات الاستعمارية التي دفقت عليها كمياه الشلالات

التي لا تنفك عن الظهور، ثم السقوط، ثم الظهور من جديد. هذه الكنيسة التي عرفت منذ أمد بعيد سلاما كانت على بعد دقائق فقط، أو ثواني من شهودها على وقع حادثة مرعبة تقوض ما عرفته من هدوء منذ إنشائها.

عند تقاطع طريق فيلاج ماري المؤدي إلى كاتدرائية نوتروردام (السيدة الإفريقية)، في رصيف طويل يشبه المسطرة، تفوح منه رائحة البترول الجاف الجديد ذي السواد القاتم، يتوسطه زقاق جانبي على اليمين، وطريق مملوء بالسيارات، والحافلات العابرة والمارة، فالساعة الآن تشير إلى العاشرة بالتمام صباحا، ساعة واحدة قبل أن تشرع الكاتدرائية أبوابها للزائرين والسياح الفضوليين، مثل الجدة التي تنتظر عناقا عاطفيا ودافئا لأحفادها الغائبين عن حضنها لسنوات... مستكشفون من كل بقاع العالم، ليشهدوا على جمال وعظمة أحد أشهر الكنائس الواقعة في الجزائرالحبيبة.

شقت سيسيل طريقها المعهود المؤدي للكنيسة الذي حفظته كما تحفظ الفتاة الشابة رسائل حبيبها الغرامية، ككل روتين صباحي عادي ممل، ليس فيه تحديث لتتفقد آخر اللمسات من الأعمال التنظيفية، التي تقوم بها كل يوم... الرياح الخفيفة التي كانت تأتي من البحر عمدت

على تحريك نسيج ثوبها الطويل يمينا وشمالا كالمد والجزر، أو كما تفعل أمواج البحر بالزورق الصغير معلنة سيطرتها عليه، بطولها الفارغ ويديها البيضاوين الطويلتين، مثل يدي فتاة أرستقراطية، بخفة فتحت باب سياج الكاتدرائية الذي تحاوطه الأسلاك من كل جهة خشية وحماية من المتطفلين، أو من تسول له نفسه المساس بأي من الممتلكات. لكن على غير العادة اليوم نغزت أصبعها بأحد الأسلاك الخارجة عن طوع أخواتها كالفتاتة المراهقة التي تعلن العصيان لأبويها، أطلقت صرخة صغيرة مكتومة تعبر عن الألم الخفيف الذي يحاوط إبهامها معلنا عن نزول ذلك السائل القرمزي الصارخ الذي يسمى الدم، والذي يشبه النار. أرجو بأن ذلك ليس نذير شؤم.. أي تحذير بحصول خطر قادم، أو كارما سيئة، فبعض الخرافات القديمة تعتبر جرح الأصابع فألا سيئا، كما تعتبر شعوب أخرى بأن الشفق القطبي الشمالي نذير شؤم بالحرب والوباء، فأصابع اليد عند الحضارات الغابرة تعتبر مصدر طاقة، وأن أصدقاءك سيحتاجون قريبا إلى مساعدتك.. هذا ما كان يدور في عقلها بينما تكمل فقط بضع خطوات متبقية لها من الدرج، لتعبس عند وصولها أمام الباب لثوانٍ، وتتجه حدقتاها إلى موضع جانبي معين تقف متؤملة شيئا ما،

وهي تلتف يمينا شمالا وجنوبا كأنها في رحلة بحث عن شيء، أو كائن ما كالطفل الذي يضيع لعبته المفضلة. ولا يرضى بأقل من غيرها، هذا ما كان يصف حالة سيسيل لدقائق، قبل أن تتدارك نفسها لشعور الاستسلام الذي خالجها منذ هنيهة، لتلتف وتواصل فتح الباب الخشبي العتيق، الذي ساهم خشب البلوط المتين والفخم في تشكيله، والمرصع باشكال من الزخارف المختلفة ومستوية الأوزان التي تحلت بها أسطح الباب. فلكل باب هويته، وهذا الباب لم يكن يستحق سوى عن كونه مهدا لأم الكنائس. ولجت سيسيل للداخل لتكمل دربها المستقيم، صرت الباب من خلفها، وهي كلها خفة للانتهاء من الأشغال التي تحكمها.

بعد نصف ساعة كانت قد أكملت ربع العمل تقريبا من كنس وتنظيف، وإزالة غبار، وكشط الأتربة...، كانت تمقت القيام بأعمال التنظيف، كما كانت زوجة الأب تمقت ربيبتها.. هي التي كانت دائما فتاة مطيعة لأبويها، حتى عندما قرر أبوها القس جورج الذي يسكن في الريف الهولندي أن يختار لها حياتها ويدخلها في دير ما، كانت تخفض له جناح الطاعة العمياء.. لقد كانت مستشرقة نوعا ما في الأول، لأنها كانت ستغادر تلك البقعة التي عايشتها لستة وعشرين عاما، فارتأت أن تغيير البلد

والتعرف على إقليم مخالف، ليس دائما شيئا سيئا، لم تكن تحلم في يوم من الأيام من أنها ستتخلص من كابوس والدها المرعب، الذي كان يتصف بنهج شديد الصرامة، ومراقبة كل صغيرة وكبيرة تحدث في حياتها، عدا التحكم في عيشتها طبعا، فكانت تشبهه عادة بالدكتاتور، ذلك الحاكم الطاغية الذي سيقذفك زورق قمعه، وجوره في كثير من الأحيان إلى جزر الخوف، والكآبة والانتحار، وإذا لزم الأمر الإعدام، هذا ما كان يعشش في ذهن سيسيل التي كانت بدورها غارقة في واد يومها الحافل بالأعمال التنظيفية.. باشرت بالكراسي كما تبدأ غالبا كل صبيحة، تلته بالطاولات الصغيرة المتقاربة التي تفوح منها رائحة خشب الصندل الملطف للجو، كانت الطاولات مركزة بعناية فوق الأرضية الرخامية ذات الملمس اللطيف على القدم، كأنها أعناق شجر تأبى الاقتلاع مهما طالها الزمن.. تبقت لها ثلاث طاولات أخرى، وتختم شغلها لنهار اليوم، وأخيرا.. قالتها متنفسة الصعداء بإرهاق وهي تمسح قطرات العرق التي أبت إلا أن تطفو فوق جبهتها العريضة، غير أن عينيها في ثوانٍ قليلة انزاحت للجهة اليسرى، وعلقت في باب المحراب كتعلق صنارة صياد في طعم ما، وانتظاره حتى يلتهم السمك الطعم وتمكنه منه، اتجهت بنظراتها نحو باب المحراب الذي كان مفتوحا قليلا

بغير العادة، استنفرت بعينيها وعبست للحظات إلا أن بذور الشك رفضت التخلي عن فكرة الذهاب لهناك واستطلاع الأمر، بعد ثوان من التفكير قررت أخيرا أن تحطم رادع السكون، وأن تكشف عن هذا اللغز... خطواتها وهي تتجه نحو باب المحراب كانت رصينة، وحذرة كمشية الأم التي تركت طفلها ينام في مهده، وهي تسير بخطوات هادئة كي لا توقظه من نومه، في طريقها لهناك فكرت أنها ربما ستقوم بفتح الباب كلية، وتهويته وإشعال بعض الشموع للتبرك، لكن في ثانية انسحبت كل خططها ومقاوماتها للمعركة التي نشبت في مسرح عقلها، انسحبت ما إن لامست يداها الباب مفرجة عن السر الذي كان يتخفى هناك.. حتى دوت صرخة قوية مفزعة صدعت المكان، كالصوت الذي يطلقه جرس الإنذار معلنة عن وجود كارثة ما، امتدت حتى الدير المقابل...

الجريمة

شرعت البوابة الخارجية للكاتدرائية، والتي تعانقها الأسلاك المعدنية في كل تفاصيلها من كل جهة، لتعلن عن دخول مركبة فارهة، كان الشخص الذي فتحها عبارة عن شخص قصير القامة، كثيف الشعر، ذي جبين مسطح، ووجه مربع الشكل، يتميز ببياض بشرة ملفت للانتباه، كقطعة صابون خرجت للتو من علبتها، وذي ملامح بريئة لحد ما تعلن عن حسن نية صاحبها، بالرغم من علامات النضج التي تتسم بها تقاسيم خلقته، انبسطت أسارير وجهه بسرور، وهو يلوح للسائق الذي ولج للتو بكف يده اليمنى البيضاء بابتسامة بشوشة، لم تجد لها مكانا سوى افتراش نصف وجهه الدائري الأبيض.. ربما لهذا السبب كان يطلق عليه اسم مارشميلو نسبة إلى حلوى الخطمي ذات الصبغة البيضاء، مربعة القوام وتحديدا اسفنجية الكيان.. فمارشميلو بدوره كان موسوعة معلومات قاموس على هيئة إنسان، يمتص ويحفظ الحقائق والبيانات من حوله بطريقة عجيبة، وغريبة في بعض الأحيان، ربما لهذا السبب استطاع أن يحجز له تذكرة في أهم المقاعد الأولى في المسرح البوليسي كأشهر مساعد لأحد أهم المحققين الخاصين في الجزائر، خصوصا أن

الدولة كانت منغلقة كثيرا في هذا المجال، لم تكن تعطي تراخيص في هذا الميدان لأي كان، ببساطة للذي تبرز فوقه سحابة التفوق فقط والتي لا تنفك أن تغبر حتى تكون عصرت مطر التميز والاختلاف على أرض وجدانه الضمآن.

تعلمنا المركبات كثيرا عن شخصية سائقها، تفاصيلها الدقيقة تعري للأعين الملامح التي لا تكاد تطرأ إلا بالأشخاص العارفين بمفاتيح الشخصية، وأسرار النفس البشرية، اصطفت سيارة الرونج روفر الضخمة ذات الدفع الرباعي الرياضية، والإطارات الضخمة السوداء، كأنها دابة ضخمة هائلة، تُروى من التاريخ الملحمي الذي تزخر به الثقافات اليونانية القديمة، أو وحش أسطوري خرافي شرس نسج من خيال الإنسان.. بريطانية العلامة، وفخمة الصنع تماما كالذي يقودها، لكن ليس قبل أن تنزلق عينا السائق نحو سياج البوابة لثانية طفيفة.. قبل أن يشرف الناس ويتخذ قرار النزول.

مثل نجمة مشهورة تدخل في الدقيقة الأخيرة للحفل الراقص، كي تجذب جميع أنظار المعجبين، وتوقد في أرواحهم لهيب الفضول والفتنة التي لن تستطيع إطفاءها سوى مياه الانبهار والفتون..

الساعة الآن تشير إلى منتصف النهار إلا ربع، من يوم ربيعي دافئ ومشمس، تتخلله أشعة الشمس المطمئنة على البشرة، ونسمات الرياح الخفيفة التي تهب كل فترة معلنة عن تواجدها بالمكان، في شهر مايو المجنون، أمام مدخل الكاتدرائية العتيق على أرضيتها المصفوفة صفا بحجرالجرانوديوريت الذي يمتاز بالقوة والصلابة، وحسن الانتقاء، الذي كان يجعلها متينة حتى لو وطئتها رجل عفريت هارب من مصباح علاء الدين السحري... لتخرج منها امرأة في العقد الثالث من العمر، ذات ساقين مكتنزتين، وقوام متناسق، وخصر دقيق، وشعر أسود قصير أملس، يصل لرقبتها يلعب به الهواء كما يحلو له، مثل الابنة التي تتدلل من الجميع، فالكل يستجيب لطلباتها لأنها مرغوبة، ذات عينين لوزيتين أشبه بالعسل الحر، وأنف مستقيم، وشفتين مقوستين وذقن بارز، أما الشامة التي كانت تتخذ خدها الأيمن مقرا لها فكانت تلك العلامة الفارقة لجمالها، والتي تلخص الجمال العربي الأصيل، أو كما يقال: علامة مسجلة لجمالها الاستثنائي.

مرتدية تنورة سوداء تصل للركبتين، مع جاكيتها الجلدي القصير الداكن الذي يلفها من كل الجوانب، معلنا عن نهايته عند محيط الخصر محررا إياها. وكأنها هاربة من فيلم الجاسوسية الروسي، أو مقدمة فيلم من

الأفلام المهمة المستحيلة لتوم كروز ذي الأجزاء المتعددة، أين تشهد البطلة الدخول البارز، وتستحوذ على جميع أنظار الساحة والصحافة، لولا أنها تلبس شارة خاصة، تعبر عن مكانة مرموقة في الشرطة، ربما هي مفتشة أو مخبرة..

لم تكن سوى أشهر محققة، خاصة في الجزائر الآنسة مريم بودي، ذائعة الصيت، التي لا يكاد أحد لا يعرفها سواء في الحقل البوليسي أو العادي، امتد صيتها في كل أنحاء المعمورة، لنجاحاتها المتتالية في حل وكشف قضايا الجرائم المستعصية، كانت محققة خاصة تابعة للدولة، ولم تكلفها هذه الأخيرة سوى بالقضايا التي تمس الأمن القومي، أو في بعض الأحيان القضايا التي تختارها هي حسب رغبتها، لكن بمقابل طبعا، لا شيء مجاني في الحياة، حتى الأوكسجين الذي تتنفسه تدفع ضريبته بحياتك عن طريق استنشاق الغازات السامة التي تنتجها السيارات، والمصانع الملوثة للهواء الذي تستنشقه أنت بدورك، هذه كانت مقولتها التي تؤمن بها. لوت شفاهها بغرور، فهي تستمتع بما تحدثه في نفوس الناس من انبهار وافتتان، مثل مغنية أوبرا قديرة، ينظر الجميع إليها بهيبة ووقار وترج، كي تريحهم من همهم، وتطربهم بصوتها القوي والشجي، بقيت كذلك لثوان حتى قررت أن تزيح

نظاراتها السوداء، لتفرج عن عينيها المحبوستين تحتها لتظهر جمال عينيها التي يزينهما خط كحل رفيع فوقهما،لديها من تينك العينين اللتين إذا خالطتهما الشمس يتغير لونهما إلى اللون الأصفر كزهرة عباد الشمس، أو حقول الذرة، وقفت وكأنها تنتظر أحدا ما، لهب مارشميلو الذي كان سارحا فيها هارعا كالسهم الذي يطلق من الرماح نحو هدف دقيق، لتلمحه يجري نحوها، وتبادر التكلم بامتعاض واستخفاف:

- مارشميلو لماذا عينتك مساعدا لي؟ أليس كي تهتم بالأعمال في غيابي؟ لقد وجدتك كعادتك سارحا في شيء ما كان صخرة قرانيت واقعة فوق رأسك، وأنت واقف هناك غير مزحزح، تخشى إن تحركت تفقد توازنك وتهشمك. أنا في عطلة يا إلهي ألا يحق لي الراحة بعد قضية الأمازون التي كدت أن أفقد حياتي فيها؟ ثم أتدري كم كلفتني تذكرة الرحلة ذهابا وإيابا؟ لتقاطع سفريتي أنت بقضيتك المستعجلة هاته لطفك يارب، قالتها بإحباط كفتاة تنشد المساعدة وهي تغرق ثم عبست أثناء حديث لمساعدها الذي كان صامتا مطالعا إياها بغباء.

- مارشميلو متداركا نفسه، وهو يبتسم: آنستي أنا آسف لمقاطعة رحلة استجمامك، واستكشافك في البرازيل، لولا أن القضية ذات أهمية بالغة لما كنت تلقيت

مني كل هذا الكم الهائل من الرسائل والمكالمات، لقد جاءنا أمر من النيابة العامة خصيصا لتسليمنا هذه القضية، كلفوها إلينا نحن بالذات، فلها بعد دولي شديد السرية، وتمس المصلحة العليا للبلاد، وخوفا من مفتشي البوليس الفاسدين، حتى الصحافة لم تسرب إليها أي معلومة حتى الآن، سوى بأنها عملية سطو!

قاطعته مريم بودي بسرعة: أوليست كذلك؟

- مارشميلو: لا، إنها جريمة! قالها بخفوت خشية استراق أحد لسماع المحاثة، انفضت عينا مريم بودي باندهاش، ثم استغراب.. ليردف قائلا: لقد قتل كاهن في العقد الخامس من العمر. لقد تم إنهاء حياته بعدة طعنات بسلاح أو أداة لم نجدها في موقع الجريمة، وحسب تقرير الطب الشرعي فإن الوفاة كانت على الساعة الثانية ليلا من مساء البارحة، وأيضا لقد وجدت وحدة التحقيق المكلفة بتقصي الأدلة الجنائية دبابيس في مكان الجرم، ويمكنني أن أقول لك بأن القاتل كان مدفوعا بكره، أو حقد معين تجاه الكاهن، لأنه عندما وجدت الراهبة جثته، فقد كانت الدماء تغمره من ظهره حتى أخمص قدميه .

- يبدو بأن شخصا ما لديه مشكلة في التحكم بغضبه. قالتها مريم بودي باستنكار.

- أو ربما كان ينغص عليه عيشته، قرأت مريم بودي بذور الشك والإمعان في عيني مساعدها لتهمم.

- غمغمت مريم بودي وهي تجول بعينها المكان يمينا ويسارا، كجرس إنذار منبها الجميع بوقوع الكارثة. وكأنه شد انتباهها بكلامه: ترى ماذا يمكن أن يحدث في هذا المكان الأسطوري الجميل؟ كيف يجرؤ أحد ما على تعكيرصفو سلام هذه الكاتدرائية العتيقة؟ قالتها باستهجان. ليسرع مارشميلو في الإجابة:

- يجب أن تعلمي يا آنستي بأن هناك أشخاصا لا يستوعبون قدسية أي مكان، لا مسجد، ولا كنيسة، ما يهمهم فقط هو عبادة مصالحهم، حتى لو كلفهم ذلك إحداث جرائم قتل أو سرقة. شاهدت مريم بودي طيف الجدية على لسان مساعدها لتنطق بسخرية: لقد أصبحت ترى الأمور بوضوح تام يا مارشميلو، حتى أفضل من زرقاء اليمامة نفسها واختتمتها برفع حاجبيها كشراع سفينة على وشك الإقلاع، ليقلب مارشميلو عينيه متأففا:

- يبدو بأن حس الفكاهة لديك لا يغيب أبدا حتى في أعتم الظروف، قاطعته مريم بودي بسرعة:

- عزيزي، إن البؤس والشقاء يصارعنا في حياتنا اليومية، كما يصارع الغريق أمواج البحر الهائجة، فإما أن يغلبها أو تغلبه، كما أن أيام التعاسة وقتها يمر ببطء

عكس أيام الفرح والسعادة، التي تركض لتلتهي بثوانٍ مثل الماراطون لهذا وجب إحكام قبضتنا حول لحظات السعادة إن وجدت حتى إن كان أجلها قصيرا. أكملت حديثها وهي تحاوط يدها اليمنى تحت صدرها، بينما اتجهت يدها اليسرى للوقوف كختام رقصة فلامنكومن الفلكلور الإسباني الشهير.

أكملت حديثها عندما لم تجد أمارات الدهشة والإعجاب التي كانت تبحث عنهما في عيني مساعدها حيث افتقدتها لتلي حديثها متجاهلة عينيه التي تناظرها محتفظة بكل تفاصيلها:

- هل قلت دبابيس؟ هل يؤكد لنا هذا بأن القاتل امرأة؟ وأخرجت مفكرتها الصغيرة في خضم حديثها لتكتب شيئا ما.

- مارشميلو وعيناه لا تفارقان وجهها: يجوز ذلك أو ربما لا، ففي أيامنا هذه حتى الرجال يستعملون الدبابيس، فلا يمكنك أن تجزمي الأمر.

دخل الربيع معتدلا هذا العام، فالأزهار والأشجار تتفتح، والجو معتدل، وجمال الطبيعة يزهر في كل مكان، الشمس تستند على إحدى السحب المارة في فلكها، لتعطينا أشعة دافئة نسبيا قبل أن تأفل لبعض اللحظات، لكن السماء أبت إلا أن ترشهم ببعض من

رحيقها الرقيق عبر قطرات منعشة من المياه. غطت مريم بودي رأسها بيديها هاربة من زخات المطر نحو الكاتدرائية. لكن السماء ستظل أرحم من أفعال البشر الشنيعة.

سر الرمال

دلجت مريم بودي كاتدرائية السيدة الإفريقية، وقد استحوذ على ذهنها العبارة المكتوبة فوق شاهد الباب " Notre Dame d'Afrique priezpour nous et pour les musulmans "،بالفرنسية ومعناه: "سيدتنا الإفريقية صلي من أجلنا ومن أجل المسلمين."،معلم تاريخي جميل هذا ما كانت تفكر فيه مريم بودي، وهي تتأمل لوحات جدران الكنيسة المرسومة بإتقان تام بالزيت ونوافذها المزينة بالفسيفساء الأزرق، تتميز في الداخل بنقوشها الإسلامية والبيزنطية، ويبلغ ارتفاع الكنيسة 54 مترا في المنتصف توجد لوحة كبيرة وجميلة للسيدة العذراء وطفلها المسيح. يوجد بالداخل محل لبيع الذكريات، وكتيبات متعلقة بالكنيسة وتاريخها، جرى ترتيبها بشكل أنيق وبلمسات بديعية، قناديل وزينة معلقة على الأسطح الخشبية، تغوي الناظرين كفتنة امرأة جميلة، وما توقعه في قلب ونفس رجل صائم لمدة طويلة عن النساء. مكان أثري فعلا وسيم.. قالتها بصوت هادئ لمساعدها وهي تختم تؤملاتها المفتونة بهذا المكان الأثري، الذي شهد قرونا من الأزمنة الغابرة، وهو يشهد اليوم أسوأ ذكرى في تاريخه.

وصلت أخيرا بعد مشي يقارب الخمس دقائق باطمئنان لمقدمة الكاتدرائية، التفتت إلى الجانب الشمالي الأيسر أين يقع المحراب حيث كان الكاهن يسبح في دمائه، ومكان الجثة المرسوم بالطبشور الأبيض والمحاوط بشريط أصفر يجعله تحت استحواذ الشرطة قبل أن ينقلها خبراء الطب الجنائي للتشريح أخرجت النظرات من عينيها كالصخر، وهي تلتفت لمساعدها قائلة:

- يا لها من جريمة بشعة؟

أراد أن يمتطي مارشملو خيل الصمت لبعض الدقائق قبل أن يجيبها متؤسفا:

- التقرير الجنائي لم يكشف على أن الكاهن كان يقاوم بل استسلم بسهولة للقاتل، لتعبس مريم بودي، وعيناها تتفرع لجهات معينة، لفتت نظرها مجموعة من النمل الأصفر الصغير الذي يطلق عليه اسم النمل البهلواني، والذي يعيش على الخشب، حاملا شيئا أصفر فوق ظهره، ويجري به نحو مخبئه، اعتلت أمارات التوتر وجه مارشملو وهو ينظر نحو المكان الذي تلمحه عيناها، لتتوسع عيناه هو الآخر بدهشة جليلة.

انحنت مريم بودي وهي تخرج قفازيها الأبيضين اللذين يشبهان ما يرتديه رجال الشرطة من جيوب جاكيتها،

وتمسك بنملة ما وهي تتفحصها،همهمت قائلة بتعجب بليغ:

- ماهذا؟ هل هذا رمل؟؟ لماذا يوجد رمل في مكان يعج بالنظافة كهذا المكان؟ فعلا، أمر غريب. دفعتها الحيرة لتتذكر شيئا ماعند دخولها قبل قليل، الروائح الزكية التي تعج بالمكان كانت لتجعل من المستحيل اشتمام رائحة الجثة، إذا فاحت أو تعفنت، فأخرجت من جيبها كيسا شفافا، وضعت الرمل داخله وتأملت المحراب جيدا، وهي تغوص بيديها نحو شيئ ما ليقاطعها مارشملو:

- عم تبحثين؟

- مريم بودي: عن أية آثار مادية أخرى، فإما أن تكون مادية كالرمل أو خفية، اختتمت كلمتها الأخيرة بافتخار، وهي تخرج شيئا ما كقطع زجاج صغيرة خضراء.

لتشرع عينا مارشملو عن آخرهما. أكملت طريقها متجاهلة مارشملو الذي يحملق فيها باندهاش تام، نحو مكان الشموع البيضاء الصغيرة، والكراسي المصطفة جنبا إلى جنب كصف الجند، لكن من دون فائدة، اتجهت إلى مكان مارشملو معطية له ما في يدها:

- تفضل، أريدك أن تطير حالا إلى المختبر، أريد أن أعرف كل شيئ حول الأدلة التي وجدتها، حملقت فيه لثوانٍ لينطق مستسلما:

- ألن تخبريني بما يجول في ذهنك؟

- مريم بودي مبتسمة: ليس الآن.

انسحب مارشميلو من أمامها كما ينسحب الخصم الخاسر في المعركة، لتعاود الخروج بدورها من الكنيسة، وهي تمشي خلفها على شكل حلقة دائرية، لترى إن كانت هناك رمال ما ربما مبعثرة في مكان قريب، ولكن لا شيئ، مستمتعة بما تخلجه الصدفة في نفسها، هناك باب آخر صغير، تطلعت حوالها فلم تجد أحدا، لترتمي كف يدها حول مقبض الباب الأجوري اللون الصغير، لكنه مقفل بإحكام، سحبت يدها من المقبض متأففة لتعتنق مذهب التفكيرمن جديد.

الرجل الغامض

الآجر الأصفر القديم الذي كان يسود قديما، بضعة أدرج لها بابان على شكل أقواس، الأول مغلق والثاني مفتوح عندما تدخل أول ما يقابلك هو ممر طويل بين الكراسي المصفوفة يمينا ويسارا، وتنتهي عند المذبح أين يقوم القس بإلقاء دروسه وعظاته. في يمين الوسط يوجد تمثال لا أعرف لمن، هل هو للمسيح عيسى، أم لقس ما؟ كانت مريم بودي تجمع كل هذه المعلومات في رأسها كصفحات كتب قديمة وتحاول ربطها مع بعضها البعض، وهي تمسك بين أطراف أصابعها سيجارة محلية الصنع، تنفث الغليون متابعة بنظرها باخرة في أعالي العاصمة عندما قاطع شرودها صوت ما وهو يقول:

- كاتدرائية نوتروردام الإفريقية الكاثوليكية، دشنت في الرابع من آيار 1872 بطراز معماري خليط من البيزنطية والرومانية، أدارت مريم بودي رأسها نحو الرجل الذي كان يكلمها مستغرقة النظر فيه بتساؤل، وجدته وسيما جدا بتقسيمات وجهه المخططة بالتدقيق، وكأنه خرج من رسمة لدافنشي، أنفه المستقيم، شفاهه المكتنزة، وحواجبه الخفيفة كلها صفات كانت ترمز للجمال الأرستقراطي الغربي، ربما يماثلها في السن،

تقسيمات وجهه تدل على أنه ليس عربيا وبالتأكيد ليس جزائريا، فرنسي أو إيطالي، فوجهه يفضحه عدا عن عربيته الركيكة، انحدرت عيناها لثيابه السوداء التي تحوم حوله بدقة غير عادية مثلما يحوم الثعبان حول فريسته المنشودة، وكأنه خلق ليلبسها، ورقبته المحاوطة بالوشاح ذي النسيج الخفيف، رافضة الكشف عن حرمتها قصد تدفئته من جنون السحب التي تطفو في الأفق، كمايو الذي نعرفه المتمرد على الربيع، ابتسم شبه ابتسامة عندما أيقن بأنها تفترسه بعينيها لتتدارك نفسها، وتبعد نظرها عنه ليكمل كلامه.

- من تصميم المعماري جان أوجين فروماجو خلال الحكم الاستعماري الفرنسي. تتميز بإطلالة رائعة على البحر الأبيض المتوسط. سادت دقائق من الصمت لتخاطبه لأول مرة:

- أرى أنك مهتم بالتحف الأثرية، لحد علمي هذه الكنيسة لا تقام فيها الشعائر الدينية، بل تعتبر متحفا الآن، معك حق المشاهد خلابة، صمتت برهة لتستنشق من سيجارتها وتكمل لكنه تكلم قبلها:

- من حسن حظنا أننا نشاهد في هذا الوقت جمال الربيع ففصل الربيع يرتبط ارتباطا وثيقا بكل ما هو نشط، هجرة الحيوانات ومن بينها طائر السنونو الذي

يحلق فوق رؤوسنا، التزاوج بين الفصائل الحيوانية، وبناء الأعشاش عند أخرى، اكتساء الأشجار بقماشها النباتي الأخضر بعدما كانت عارية، تشهد الثمار نضجها الكلي كالكرز، نمو وازدهار مختلف الأزهار والنباتات، ومن بينها زهور الليلك البنفسجية التي ترمز بدورها للتجديد والروحانية...، على ذكر الروحانية فحتى البشر يشهدون انتعاشا وسعيا في الربيع، ففتنة الأرض تعده بالعدوى التي لا طائل له بها سوى تحصيلها، فالركود الذي شهده في الشتاء والسكون، سينجلي في الربيع ليعلن عن دأب الحياة فيه مجددا، وبما أننا أمام الكنيسة، فهل تعرفين بأن كل ربيع يقام عيد كاندلماس المعروف بعيد تطهير مريم العذراء.

كانت مريم بودي تنصت لكل كلمة يقولها ذلك الشخص الغريب الذي يتربع فوق الأرض أمامها، وكأنه مالك لهذه الأرض، فقط تعجبت لذكائه ووفرة المعلومات التي لديه، وهي التي اعتبرته مجرد وجه وجسم جميل، تماما كما ينظر إيها الناس لأول مرة عندما يلمحونها على أنها امرأة جميلة وفقط، ولكن بعد أن يتعرفوا عليها من تكون يشعرون بالدهشة، كيف يجتمع الجمال مع الذكاء، فباعتقادهم أن المرأة الجميلة يشغلها حسنها وجمالها عن التثقف والتعلم، أما المرأة المتعلمة فيشغلها

منصبها الفكري والعلمي عن الجمال، لا يجتمع الجمال والذكاء عند العرب إلا في حالات نادرة بحسبهم وهذا خطأ، ضحكت على نفسها بسخرية في الداخل لأنها هي أيضا قد حكمت على شخص آخر مثلما يحكمون عليها عادة، فأردفت تقول، فلها نظرة عكسية للأمر:

- ليست كل مظاهر الربيع حسنة، هو صحيح عبارة عن مرحلة انتقالية ومصيرية تمر بها الأرض، ولكن لا تكون دائما نهاية المراحل الانتقالية جيدة، ولنا في الأنظمة العربية التي شهدت هذا التحول العكسي أحسن دليل، انعدام الاستقرار المناخ الفجائي يقلقني، تصارع التيارات الهوائية الساخنة القادمة من الصحراء، والباردة القادمة من القطب الجنوبي مع بعضها البعض، تؤرقني الأعاصير القمعية، العواصف الرعدية، الفيضانات الفجائية، كلها أشياء لا ننتظر حدوثها في فصل الربيع، لكنها تحدث على حين غرة، تحدث عندما لا نكون بانتظارها، تحدث عندما نستبشر بالربيع وملامحه، لكنه لا يأبى سوى بمفاجأتنا بسخطه علينا، ربما هذا هو لب المشكلة، نتفاءل مثلك بقدوم هذا الفصل، لا ننتظر منه سوى الابتهاج والسرور، لكنه يأتينا بتكبر، فيطعننا بالظهر تماما كالصديق الذي نتطلع أن يكون وفيا لنا، لكنه يغمد في لحدنا سكين الغدر على حين غرة.

اختتمت كلامها وهي تدهس أعقاب سيجارتها بحذائها الجلدي الأسود الصلب، ملتفتة مرة أخرى للرجل الذي تكلمه، أدارت وجهها ناحيته لتعقد حاجبيها بعبوس تام، لكنها تفاجأت برحيله، تحول جسمها للخلف وعيناها تبحثان في المكان عنه لكنها لم تلمح سوى مساعدها قصير القامة يمشي ناحيتها بابتسامته الغبية، لتطلق نفخة من التأفف كالقدر الذي يعلن عن نضوج الطعام، منزعجة من ذاك الغريب الذي تركها تتكلم وحدها كالفاقدة للعقل.

- مريم بودي متسائلة: مارشميلو ألم تشاهد رجلا ملابسه تتسم بالسواد، ووجهه يوحي بأنه رجل أجنبي، حسن الوجه وطويل القامة؟

- مارشميلو:رجل ذو ملامح غربية؟ لا، لم أشاهد سوى رجال البوليس في شاحناتهم الزرقاء المتصافة كأعمدة الإنارة يقومون بالمراقبة، ورجالات المخبرين، الذين يحومون حول المكان مثل القلعة التي شهدت غزوا.. قالها بفضول.

- مريم بودي باستسلام، وعلامات الخيبة تغزو وجهها: حسنا قل لي:هل يبعد الدير كثيرا من هنا؟.

- مارشميلو مجيبا إياها بشك لملامحها المتغيرة: لا، إنه على بعد دقيقتين فقط من هنا، إذا أخذت ذلك الطريق مباشرة سيتراءى لك وهو يقع في طريق ضيق بعد ذلك الرصيف الذي تشاهدينه من هنا، في تقاطع طريق فيلاج ماري. على اليمين مباشرة، ذو بوابة خضراء كبيرة.

- مريم بودي: وإذا أخذت الطريق الآخر؟

- مارشملو: إذا تمسكت بالطريق الآخر الضيق ذي التفرعات العديدة، ستصلين بعد نصف ساعة على الأقل، لأنه سيكون عليك الدوران حول الدير كله.

- مريم بودي: وإذا كان للدير باب ثانية؟ أقصد جانبية؟

- مارشملو: اه، هنا سيتغير كل شيء ستصلين على الأقل بعد عشر دقائق بالتحديد.

ارتسم بريق غريب في طيات عيني مريم بودي، فأجابته مسرعة بحماس:

- حسنا إذا فليبدأ التحقيق، أنا ذاهبة، لا تتبعني أرجوك.أريد تقريرا بجميع الأدلة فوق المكتب لدى رجوعي، مشت أمامه متجاهلة رده.

- يا لطبعاها العصبية! تمتم مارشملو وهو يسلم أمره لله ذاهبا.

بداية التحقيق

وصلت مريم بودي إلى مفترق طرق فيلاج ماري المؤدي إلى دير الراهبات، وعيناها تغزوان الطريق بكل جوانبه وتفرعاته، غريب عدم وجود كاميرات مراقبة في مكان مهم كهذا، تمتمت في خلدها، تراقب بعينيها كل تفاصيل المكان وكأنها تحاول أن تتذكر الطريق جيدا، والممرات الصغيرة التي تؤدي إلى الشوارع الفرعية، والطريق الكبير المؤدي إلى باب الواد الذي لا تكاد تخلو منه السيارات والحافلات، هممت ومضيقة حدود عينيها، وهي تلمح المتوسطة المعلق اسمها "متوسطة ابن خلدون" والذي يغلب أيضا عليها الطابع المعماري القديم، يبدو بأن هذا الحي قديم جدا، وصلت أخيرا إلى الطريق الضيق المؤدي إلى بوابة الدير الذي تكلم عنه مارشميلو، حاولت أن تفتح الباب، وهنا كانت المفاجأة.. الباب كان مفتوحا، هل يعقل بأن مكانا كهذا ليس له بواب يحرسه؟ أم أن أحدا ما ترك الباب مفتوحا عن قصد علانية؟ أم أن هناك راهبة تتولى حراسة المكان؟ ولسبب ما تركت عملها وانشغلت بشيء ما؟، كلها تساؤلات وعلامات استفهام عديدة تحتاج إلى جواب واستغرابات متفرعة أضافتها لمفكرتها الصغيرة التي تكتب فيها ملاحظاتها، تلك المفكرة التي ياما احتوت

على استفسارات هائلة، وكان مآلها الرد، الأسئلة في مخيلتها كانت عبارة عن قطع من الجليد الذي ينتطر الذوبان في مياه الحلول.

دلفت مريم بودي البوابة الكبيرة الخضراء التي تتوسط حائطين ينغمسان في اللون الأصفر، والتي لم تكن بوابة مناسبة لمكان جميل كهذا الدير الذي يشبه القصر. كان مكانا فسيحا جدا وشاسعا، أول ما يقابلك هي نافورة في الوسط تفيض بالماء، وفي قمتها تمثال شاهق للسيدة العذراء، وهي تمسك بيدها اليسرى صليبا، ويأتي بعده مباشرة الدير الذي يبدو رائع الجمال.

أحست مريم بودي وكأنها في حقبة البارونات والكونتيسات وهي تتمشى في المكان الذي كان يشبه القصر، يعانق يمينها ويسارها صفوف من أشجار الصنوبر، متراسة بشكل مستقيم ليخيل لك وكأنها جنود تحرس قلعة الملك.

وقفت تتأمل النافورة جيدا بكل حذافيرها، ثم قذفت أطراف عينها لجهة التمثال كما يقذف الصياد شبكته، لتعقد حاجبيها بتعجب وذهول، فتوسعت عيناها وهي تقول: لكن لماذا؟، لمدة ثلاث دقائق وهي تدور حول التمثال الحجري الأصفر باستغراب، لتتنازل عن الشك الذي يحفر طريق الاستفسار داخلها، وتكمل دربها نحو

الأدراج المؤدية لباب الدير العظيم، رمت يدها على العمود المتصل بالدرج لتستند عليه، وهي تفكر بعمق في خلدها حول إمكانية وجود قاتل خطير في مكان مسالم، وهادئ مثل هذا المكان، ليتبدد هذا التعجب بعد أن لسعتها حرارة العمود كما تقتنصك لسعة الحية، لتخطف يدها منه بسرعة، لتلمع عيناها وهي تقول بصوت داخلي: إن هذا السلام والهدوء الظاهر لا يبدو سوى غطاء لشيء قبيح جدا يوجد بالداخل.

طرقت مريم بودي الباب لثوانٍ لتخرج منه امرأة فارغة الطول ذات قوام منتصب، وجمال هادئ، ترتدي نظارة طبية وهي تلف نفسها بلباس الراهبات الذي لم يكن تقليديا، فهو يشبه اللحاف، أو ما كانت ترتديه نساء الجزائر قديما (الحايك) لكن من دون غطاء الوجه، له خطان أزرقان عند نهاية القماش، عبست الراهبة لمجرد أن لمحتها، فآثرت الكوميسار أن تقدم نفسها:

- مريم بودي:

- المحققة مريم بودي.. وأخرجت بطاقة هويتها بفخر، لتشهد اندهاش الراهبة عندما تعرفت على من تكون، يبدو بأن صيتها المتميز وصل حتى لهذا الدير.

ابتسمت لها الراهبة بتفهم:

- تفضلي معي نحو مكتب الراهبة الأم.

أنهت كلامها مغلقة الباب خلف المحققة، مشت الاثنتان تاركتين مقدمة الدير نحو ممر ضيق، يمين وشمال الحائط غرف متقابلة، وقد لفتت اللوحات الدينية المعلقة بانتظام في كلا جانبي الجدار نظر مريم بودي، بعد ثوانٍ وصلت الكوميسار نحو غرفة استقبال صغيرة، فطلبت الراهبة من مريم بودي أن تنتظر لدقائق ريثما تخبر رئيسة الدير بتواجدها، لتومئ لها المحققة بتفهم. جالت عينا المحققة بتأنٍ في أرجاء الغرفة الصغيرة وهي تتأملها بعمق، ديكور دافئ وبسيط، يشبه الفن المينيمالي الخالي من التعقيدات الكثيرة وقطع الأثاث، سوى من طاولة، وبعض الكراسي ولوحة دينية، يبدو بأن هؤلاء الراهبات مهووسات باللوحات، طليت جدران الغرفة باللون البيج الفاتح الكلاسيكي، هذا لا يدعو للدهشة، ففي بعض الثقافات يرمز هذا اللون إلى التقوى وبالنظر لأننا في مكان ديني، فهذا اللون يخدمه بالتأكيد، وبما أن مريم بودي ذات طبيعة فذة، فهي تستطيع أن ترى ما لا يمكن للإنسان العادي الممل رؤيته، بالنسبة لها هذا اللون يذكرها بشيء ما، اه، نعم الرمال، لون رملي فاتح مثل الأصفر الباهت، ليقطع شرودها خروج الراهبة لتسمح لها بالدخول، وبابتسامة شكر رمقت مريم الراهبة وهي تغادر، بمجرد أن لمحت الراهبة الأم المحققة مريم،

وقفت مرحبة بها وشكرتها على مجيئها بدون أن تجر كل الدير وراهباته نحو مخفر الشرطة، وما كان سيخلقه من بلبلة وأضرار بسمعة الدير إن حدث ما كانت تخشاه:

- رئيسة الدير: أود أن أشكرك جزيل الشكر والامتنان أيتها المحققة على تفهمك، ما كان أحد ليعلم ما سيحدث لسمعتنا إن رآنا الناس ونحن نتردد ذهابا وإيابا لمخفر الشرطة بالرغم من أنني أعلم بأن هذا هو الصواب، لكن لدينا شعار في الدير وهو (الالتزام، الطاعة، والعفة) وأكيد كنا سنتضرر جراء ما حدث، باركك الرب بنيتي.

- مريم بودي: لا شكر على واجب سيدتي، أنا محققة خاصة، ولست تابعة لمركز شرطة ما، ليكن في علمك بأن ما سيحدث هنا قد لا يصل لمراكز الشرطة، سوى بعض الإجراءات الإدارية التي تتطلب الحضور إلى مخفر الشرطة وهذا فيما يخص التصديق على شهادتك.

انحنت لها رئيسة الدير براسها بتفهم تام، وبعينين تشعان طيبة قاطعت مريم بودي شرارة الطيبة التي تخرج من عيني شاهدتها كالمصباح الساطع، وهي تخرج مفكرتها الصغيرة:

- قولي لي سيدتي، منذ متى وأنت تعملين كرئيسة لهذا الدير الجميل؟

- رئيسة الدير: منذ عشر سنوات بالتمام.

- مريم بودي: إنها مدة طويلة لتتعرفي على طبائع الناس بالتأكيد، خصوصا الراهبات اللائي هن تحت إشرافك، أليس كذلك؟ مستفسرة.

- رئيسة الدير: ما تعلمته طوال أيام الخدمة أن الناس مهما توقنين على تأكد معرفتك بهم، فإنك لن تعرفي شيئا عنهم، إن النفس البشرية ميالة إلى الكذب، والتحفظ لعدم كشف حقيقتها الأصح.

مريم بودي وهي تلمح أمارات الذكاء في نفس شاهدتها: نعم يمكنني أن أوافقك الرأي، لكن هناك أشياء مستحيل أن تخفيها طبائع الناس، مثل الأشياء التي يحبونها أو يكرهونها، عاداتهم التي ترافقهم منذ الطفولة، المزاج والسلوك، وأخيرا الضغط الذي يفرج عن حقيقة الإنسان. ثم أكملت استجواب شاهدتها:

- على حسب علمي الفاتيكان هي التي تعين رؤساء الأديرة والراهبات، أليس كذلك؟

- رئيسة الدير: نعم، الفاتيكان هي التي تعين رؤساء الأديرة في جميع أنحاء العالم، ولكن الراهبة المسؤولة هي التي تتلقى طلبات الرهبنة بالقبول أو الرفض، أما الفاتيكان أو البابا فله الخطوة الأخيرة فقط، وهي أن يقيم قداسا للراهبة الجديدة.

- مريم بودي: كم يبلغ عدد الراهبات في هذا الدير؟

- رئيسة الدير:ست راهبات بالضبط سيدتي.

- مريم بودي: ألم تواجهي مشكلة مع أي من الراهبات اللائي يقمن في الدير؟

- رئيسة الدير مستغرقة بعض الوقت في الإجابة: الشكر لله، فالراهبات كلهن ذوات أخلاق حميدة، انزوت عينها لثوانٍ وهي تتأمل شيئا ما، ثم عادت لملامحها الطبيعية وهي تبتسم.

- مريم بودي:لم تقنعني إجابتك سيدتي، لماذا أخذت وقتا طويلا في الإجابة على هذا السؤال؟

- رئيسة الدير: لا شيء، ولكن للحظة اغرورقت عيناها بالدموع، فاستسلمت قائلة: هناك الراهبة إيميلي كانت مدمنة خمر، عندما أرادت أن تصبح راهبة، عانت كثيرا لتعالج إدمانها لهذا في أيامها الأولى واجهت الكثير من الصعاب والمشاكل للتغلب على ذلك المرض الخبيث، الذي يقذفه الشيطان في القلوب الضعيفة والمغلوبة على أمرها، لكنها استطاعت أن تعود روحا طاهرة من جديد، اختتمت قولها وهي تخرج من جيب جلبابها منديلا فخما لتمسح دمعاتها المتساقطة كالشلالات التي لا تعرف نهايات.

- الكثير من الدراما، هذا ما كانت تفكر فيه مريم بودي وهي تتأمل رئيسة الدير التي لم ترتح لها منذ أن رأتها، فبحسبها الصرامة هي الصفة التي وجب أن تتمتع بها الرئيسة وليست الحنية الكثيرة، عيناها اتجهتا نحو المنديل الفخم الذي تحمله في يدها.

أزاحت رئيسة الدير المنديل إلى جيبها من جديد بعد أن رأت عينا مريم تتأملانه.

- مريم بودي مقاطعة شرودها: ربما ساور هذه الراهبة الحظ، أو لها إرادة قوية عندما استطاعت القضاء على شيطانها، فأنا أعتقد وكلي ثقة عمياء بأنه حتى ولو مات الشيطان نفسه، فسيخلق الناس شيطانهم الخاص، قالت جملتها الأخيرة التي كانت ذات مغزى بالتأكيد، بفضول لتلمح طيف عدم الراحة يغمر وجه رئيسة الدير التي تداركت نفسها تقول:

- إن سفينة الخلاص دائما في الأفق تنتظر الأشخاص التائبين، وهذا دورنا، نقوم بإنقاذ من غمرت روحه الأنانية والجشع، ونقوده إلى الطريق المستقيم، أنهت جملتها بكل ثقة وتدارك، ما جعل مريم بودي تسلك طريق السؤال مباشرة:

- أين كنت ليلة البارحة مساء في الساعة الثانية ليلا سيدتي المديرة؟

- رئيسة الدير:البارحة، كنت نائمة. كما ترين حضرة المحقق، لنا نظام نتبعه في الدير.. عند الساعة الثامنة والنصف يقدم العشاء، بعد ذلك نخلد للنوم مباشرة.

- مريم بودي: ألم تشاهدي أو تسمعي أي شيء ليلا، مثلا كصوت ما، أو جري، أو أي شيء؟

- رئيسة الدير: لا للأسف، أنا نومي ثقيل جدا، أغط في نوم عميق جدا.

- مريم بودي: متى كانت آخر مرة رايت فيها الكاهن مراد؟

- رئيسة الدير: كان قبل العشاء بنصف ساعة، أرادني أن أحضر المزيد من الكتيبات التي نقدمها للزوار في الكاتدرائية.

- مريم بودي: وهل أحضرت ما طلبه؟

- رئيسة الدير: لقد طلبت بدوري من الراهبة المسؤولة أن تقوم بهذه المهمة، فقد كنت أوقع بعض الأوراق في المكتب.

- مريم بودي: أود أن أطرح عليك آخر سؤال، لماذا يوجد رمل أين فقد الكاهن حياته؟

- انفرج فاه المديرة لتعاود ضمه لفكها المتشنج، وعيناها التي فغرت من شدة الدهشة، ثم عبست وهي تقول:

- رمل؟ لا أعلم ربما السارق جلبه معه في حذائه أو شيء من هذا القبيل.

- مريم بودي: سارق؟ وابتسمت ساخرة، لماذا يود سارق ما أن يقتل كاهنا؟ وماذا سيسرق ذلك اللص من كاتدرائية ليس فيها شيء ثمين؟ على كل حال شكرا لوقتك، أريد أن أستجوب الراهبة المسؤولة.

- رئيسة الدير: لك ذلك سأناديها، لترفع السماعة وتطلب مجيء الراهبة كاثرين المسؤولة. انصرفت مريم بودي تتأمل المكتب الذي لم يكن يختلف كثيرا عن قاعة الاستقبال، فوق المكتب يوجد كتابة كبيرة تعبر عن صاحبتها الأخت ماري لوري رئيسة الدير.

دلفت الراهبة المسؤولة كاثرين للمكتب لتنصرف مديرة الدير بدورها، وهما يتبادلان النظرات المبهمة، لقد كانت تلك الراهبة التي استقبلتها عند الباب منذ قليل، لتتكلم مريم بودي موجهة السؤال لها:

- أرجوك حدثيني سيدتي، متى شاهدت الكاهن مراد آخر مرة؟

- الراهبة المسؤولة: قبل العشاء بربع ساعة، لقد أوكلتني المديرة بجلب كتيبات، كانت نفدت من الكنيسة، وكانت هذه آخر مرة.

- مريم بودي: كيف كان؟ هل كان قلقا، او هادئا؟ أو عصبيا؟ فأنت آخر من شاهده؟

- الراهبة المسؤولة: كان كعادته سيدتي هادئا ومتبسما. لم أر في ملامحه أي تغيير يذكر، قالتها بكل هدوء.

- مريم بودي: ماذا كنت تفعلين البارحة ليلا على الساعة الثانية؟

- كاثرين: بعد العشاء مباشرة ذهبت لإقامة الصلاة في غرفتي، لأني شعرت بصداع، ثم نمت. لذا كنت نائمة ذاك الوقت.

- مريم بودي: ألم تسمعي أي صوت، أو تشاهدي أي أحد؟ ثم عبست ناحيتها لتكمل، ألا يوجد لديكم بواب؟

- كاثرين وهي تزيح عينيها لجهة الباب لبرهة: في الحقيقة ربما سمعت شيئا من هذا القبيل، وكأنه ركض في الممرات، ولكنني اعتقدت بأنها الراهبة سيسيل تركض خلف هرتها، لم أعر ذلك أي انتباه فعلا، وعاودت الخلود للنوم. أما بخصوص البواب، فعلا كان لدينا حارس، ولكنه مختفٍ منذ ثلاثة أشهر.

- مريم بودي: مختف؟ هذا غريب! ألم تستطلعي عن سبب اختفائه، أو توظفي أحدا غيره؟

- كاثرين: نعم سيدتي، فعلا غريب، طوال الشهور الماضية، وأنا أطلب رقمه، لكنه مقفل، خفت أن أوظف أحدا آخر، فيظهر مجددا، ويحزن ويلومني إذا وجد شخصا آخر مكانه، لذا ارتأيت أن أتريث قليلا، فالبوابة الآن بدون حارس كما ترين، لكن ربما في الأيام القادمة سيتغير ذلك، وأجد بديلا آخر.

- مريم بودي: حسنا،على ما يبدو أنت الراهبة التي تملك مفاتيح الدير والكنيسة، والتي توزع المهام على جميع الراهبات؟

- كاثرين: لست أنا الوحيدة التي تملك المفاتيح، بل جميع الراهبات اللائي يعشن هنا يملكن نسخا، وأنا الراهبة التي توزع المسؤوليات، ولهذا سميت بهذا الاسم.

كانت كاثرين حادة الملامح، كما يجب أن تكون الراهبة الحقيقية المسؤولة، والصارمة، كما أن لباسها متقن الخياطة واللبس زادها هيبة.

- مريم بودي:هل باستطاعتك أن تذكري لي مهام كل راهبة؟

- كاثرين: بالطبع، لكل راهبة هناك عمل منوط بها،هناك الراهبة سيسيل التي تقوم بأعمال تنظيف الكاتدرائية لوحدها، ثم الراهبتان إميلي وصوفيا المكلفتان بأعمال تنظيف الدير كله، هناك أيضا الراهبتان: هيلين و

نورة اللتان تقومان بتقديم الطعام وطبخه. وكل الراهبات تمارسن الأشغال التطريزية والخياطة، بعد الانتهاء من عملهن صباحا يذهبن إلى المعمل الموجود وراء الدير بعد الغذاء، أما أنا والراهبة الأم فلنا الأعمال المكتبية.

- مريم بودي:لا أقصد إخافتك أيتها الأخت كاثرين، لكن جميع الراهبات اللواتي يقبعن هنا بمن فيهن أنت مشتبهات بهن بصفتكن آخر من شاهدتن الكاهن، لتتسع حدقة الراهبة كاثرين بخوف. وكان المحققة شاهدت في عينيها لثوانٍ فقط نوعا من الحزن، ولكن أدركت نفسها ليعاود الجمود يغزو عينيها من جديد، لتردف بكل حزم:

- الراهبات يقطعن عهود التبتل ابتداء من أول يوم يلجأن فيه إلى هذا النظام الديني، هن نساء عاهدن أنفسهن أن يكرسن حياتهن من أجل دينهن، بغض النظر عما فعلنه من قبل، وهنا ضاقت عيناها لتردف بسرعة، أؤكد لك أن لن تقدر إحداهن على قتل أي مخلوق، خصوصا الكاهن مراد، فقد كان أبا محبا للجميع!

- مريم بودي: أرجو من كل قلبي أن يكون كلامك صحيحا، فلو ثبت العكس ستكون فضيحة تعصف بهذا المكان الجميل، الذي ساهمت أنت أكثر من أي شخص آخر على جعله مثل ما هو عليه اليوم.

إيميلي

لمحت مريم بودي نظرة الفخر في عيني شاهدتها، لتنهض من مكانها فجأة، وتفتح الباب لترى راهبة ما ملتصقة بالباب تسترق السمع، تلك الراهبة وهي تبتسم بحياء، كانت كالطفلة الصغيرة بحجمها الضئيل، وبياض بشرتها وجمالها الناعم لتردف تقول بخجل عصر وجهها، ما جعله يميل إلى الحمرة الخفيفة مثل التفاحة في بداية نضوجها:

- آسفة سيدتي كنت... كنت.... امم كنت سأنادي على الراهبة المسؤولة...

- مريم بودي: حسنا تفضلي، مشرعة لها الباب على مصراعيه لتلج الأخيرة بكل استحياء.

- كاثرين: متى ستتوقفين عن مثل هذه الحماقات يا إيميلي؟ قالتها موبخة، ثم ما فتئت أن التفتت إلى المحققة بنبرة كلها أمل ورجاء:

- أرجوك اعذريها حضرة المحققة، فهي لازالت تتعلم وابتسمت بهدوء قبل أن تخرج باستئذان.

- مريم بودي: تفضلي بالجلوس إيميلي، وأخيرا بعض المرح، على ما يبدو بأنك مثال على تلك الفتاة التي تحدث

الكثير من المرح في المكان الممل، اختتمت كلامها بغمزة، لتضحك إيميلي بعفوية لتردف:

- أنا آسفة مرة أخرى حضرة المفتشة، أنا أعرف بأني أخطأت، ماكان يجب علي استراق السمع.

- مريم بودي: حسنا، يمكنك إخباري بجزئك من القصة وهي تتطلع فيها بابتسامة لعوبة. كما رأيت منذ قليل، بفعل عملك بتنظيف الدير، فإن لك الحق في الولوج إلى جميع الغرف، وبذكر أنك تتمتعين بفضول كبير بمعرفة الأخبار فأنا أكاد أجزم بأنك تتمتعين ببعض المعلومات التي قد تفيدني أيضا في الكشف عن أشياء تخدم القضية، وإحلال العدالة على قاتل الكاهن المسكين، الذي قتل بطريقة بشعة، رفعت عينيها ناحية الراهبة إيميلي وهي تعقد حاجبيها، ما الأمر إيميلي ألا تريدين التحدث؟ ماذا هناك؟ قالتها باستفسار.

قضمت إيميلي شفتيها من الدخل بقوة، لتمنع نفسها من الإجابة، لكن شفتيها كانتا تغليان كصفيحة من الحجارة الساخنة على فوهة بركان مستعد لأي لحظة للكشف عن طغيانه:

- أنا... لا، سأقول كل ما أعرفه، في الحقيقة أنا أقوم بتحرياتي الخاصة، وسأقول كل شيء عندما أتأكد من الأمر.

- مريم بودي: ولكن يمكنني أن أؤكد لك بأني لست تابعة لأي مركز شرطة، معلوماتك ستكون بمأمن عندي، القضية متسمة بسرية فائقة، لن تكشف عن معلوماتك لأي جهة، أو شخص حتى للمديرة، إذا كان هذا ما يؤرقك، عندما نطقت بكلمتها الأخيرة شاهدت فرسان الذعر تغزو وجه صاحبته الملائكي. لتجيب بارتباك واضح للعيان:

- لا ليس بعد، لقد قلت عندما أتأكد من جميع التفاصيل والمعلومات سأسارع بالاتصال بك.

سارعت مريم بودي بإخراج ورقة مستطيلة صغيرة مكتوب فيها جميع المعلومات عنها، وأرقام الاتصال التابعة لها، وسلمتها للفتاة التي تقبع أمامها:

- تفضلي، هذه كل أرقامي، سأكون هنا للاستماع والتفاصيل، ألا تريدين مشاركة تفاصيل أخرى معي؟

- إيميلي: أريد أن أخبرك بأن هذا الدير ليس هادئا كما يتسم لك، أنه مخادع للأعين، يوجد فيه كل أنواع البشر السيئة ثم عكفت عن المتابعة.

- مريم بودي: لقد قالت مديرة الدير بأنك كنت تعانين من الإدمان على الخمر، وقد وجدت أنا شخصيا قطع زجاجة الخمر في مسرح الجريمة، مما يعني بأنك المشتبهة بها الأولى على لائحتنا. شاهدت مريم بودي

سمات الدهشة والفزع في وجه إيمبلي لتردف الأخيرة بابتسامة ذات مغزى:

- ألم أقل لك، بأن أسوء أنواع البشر موجودة في هذا الدير؟ إنهم يريدون توريطي لأني أعرف الكثير عنهم. قالتها بثقة عمياء، صحيح أنني عانيت من الإدمان، ولكن ذلك كان منذ زمن، ويمكنك معرفة صحة كلامي بإخضاعي للفحوصات التي تكشف نسبة الكحول في مصل دمي.

- مريم بودي:هذا صحيح، هذا ما أنوي فعله بالضبط، لكن أريد التأكد من شيء ما يمكنك البدء بإخباري، متى آخر مرة رأيت فيها الكاهن مراد؟

- إيميلي: في الحقيقة بحسب ظروف عملي أنا لا أخرج من الدير كثيرا، فجل وقتي يذهب في التنظيف، أنا وصوفيا لذا يمكنك الإذعان بأنني لا أرى الكاهن كثيرا، ولكن أغلقت عينيها قبل أن تكمل... لكن في الأيام الأخيرة بدأت تحرياتي الخاصة، وكنت أراقبه ليتبين بأنه اكتشف شيئا ما. لتتسع عيناها وتعاود تدارك ما قالته با بتسامة مغيرة الموضوع، ثم هبت واقفة، هذا كل ما بحوزتي حضرة المحققة، اعذريني من فضلك لتستأذن ذاهبة.

اختفاء قطة

بعد خروج إيميلي من الغرفة غرقت مريم بودي في بحار شرودها التامة حول كيفية جمع المعلومات التي تحوزها الراهبة إيميلي، لكنها قوطعت من إنشاء خطتها عبر دقات محتشمة في الباب، لتعطي المحققة الإذن بالدخول، لم تكن سوى الراهبة سيسيل التي اكتشفت جثة الكاهن، لتنطق مريم بودي بعد طول انتظار:

- أنا أعلم بأنك لازلت متؤثرة بما شاهدته، لن أطيل معك الاستجواب، هناك بعض النقاط فقط أريد الاستفسار عنها. أومأت سيسيل بتفهم، وهي تتطلع فيها بعينين محمرتين من البكاء، وعايشتا قهرا غير مسبوق، الدموع تساعد الإنسان على التعافي، والتخطي من التجارب السيئة والحزينة، أو حتى المخيفة، الدموع تشبه النبع الذي يشرب منه الناس، كل شخص يشرب حسب حاجته، هناك من يشرب للضرورة، وهناك من يشرب بإسراف، هناك من يوظفها في محلها كتعبير عن الألم، وهناك من يستعملها بسطحية كما نشبهها غادة بدموع التماسيح، التي تصف النفاق والزيف لاستدراج فريستها، ومريم بودي العالمة بمفاتيح وأسرار الشخصيات كانت

تستطيع التمييز من الوهلة الأولى عيني صاحبتها، ألا يقولون بأن العين مرآة القلب؟

- هل يمكنك أن تقولي لي متى كانت آخر مرة لمحت فيها الكاهن؟

- سيسيل بهدوء مفرط: لقد كان ذلك قبل يوم من الحادثة ففي كل صباح أقوم بأعمال التنظيف لدى الكاتدرائية، وعندما أنتهي منها على الحادية يكون ذلك موعد دخول الكاهن؟

- مريم بودي: ويوم الجريمة، ألم تلاحظي شيئا متغيرا في الكنيسة، كشخص ما غريب متواجد، أو جسم مثل آلة حادة جديدة مصفوفة بين الطاولات، أو الكراسي؟ أي شيء يدعوك للشك؟

- سيسيل بنظرة فضولية حماسية: ذلك اليوم كان كل شيء يدعو للاستفزاز والشك، بدءا من أصبعي الذي نغز في أسلاك بوابة الكاتدرائية، لا تفهميني مغالطة أيتها المحققة، إنني امرأة مؤمنة، ولكن من حيث أتيت نعتقد كثيرا بالثقافات الشعبية، واعتقدت بأن ما حدث لأصبعي كان نذير شؤم، وأن شيئا ما خطيرا سيحصل، وذلك ما حصل فعلا، أومأت مريم بودي برأسها بإدراك كعلامة لسيسيل لإتمام حديثها:

- سيسيل كمن كانت تروي حكاية: ثم بعد ذلك استغربت عدم وجود قطتي أمام درج باب الكاتدرائية، فذلك كان مكانها عادة عندما لا تأتي إلى الدير في المساء، فوجدت ذلك غريبا، فقطتي منذ ذلك اليوم وهي مختفية، ولمحت مريم بودي اغروراق عينيها بدموع لتتم، أنا في خشية من أمري أن يكون أصابها شيء ما، أنا جد حزينة لما آلت إليه الأمور، لتفرج أخيرا عن الدموع التي كانت تحبسها فترة من الزمن كشلالات من المياه الهائجة، التي تنبثق من قمة جبل شاهقة متفرعة باتجاهات.

- مريم بودي: هذا صحيح، فقد ذكرت لي الراهبة المسؤولة عن قطتك، فقد سمعت صوت جري شخص ما وظنت أنها أنت.

- سيسيل مجيبة بصوت باكٍ: لا لم أكن أنا، فقد كنت نائمة حينها كما قلت لك من قبل، قطتي مختفية.

- مريم بودي محاولة مواساتها: عزيزتي، لا يجب أن نترك سوء الظن يقودنا إلى الكآبة، فهو يترصد بنا كالقناص الذي يصوب سلاحه باتجاه هدف محدد، وينتظر الوقت المناسب لإطلاق رصاصته، كانت مريم بودي تتكلم بحذر لتهدئة سيسيل التي كانت غارقة في بحار دموعها، مكملة حديثها:

- فقط، سؤال أخير: هل يمكنك أن تكملي لي ما حدث بعدها؟

- سيسيل وهي تمسح دموعها بإرهاق: بعد أتممت أعمال التنظيف بصفة عادية، غير أنني لمحت باب المحراب مفتوحا، واستغربت للأمر لأنه عادة يكون مقفولا، ثم بعدها اكتشفت جثة الكاهن تسبح في دمائها.

- مريم بودي: لقد لاحظت بأن هناك بابا ثانيا صغيرا للكاتدرائية من ورائها، هل تنظفين ذلك المكان أيضا؟

- سيسيل: في الحقيقة، لا يسمح لأي راهبة بالاقتراب من ذلك الباب، أولا: لأن المفتاح الوحيد له موجود لدى الراهبة الأم، وثانيا: لأنه يحرم علينا دخول المكان، ففيه وثائق سرية ومقدسة للكاتدرائية، فلا تسمح الراهبة الأم لأي أحد الدخول لذلك المكان خشية السرقة.

لمعت عينا مريم بودي بفضول كتلألؤ الألماس، وفي خلدها مئة فكرة حول هذا الكلام الذي سمعته للتو، مكان سري، ممنوع الدخول، الراهبة الأم هي فقط من تحتفظ بمفتاحه الوحيد، الآن كيف سأتحصل على ذلك المفتاح بدون معرفة أي أحد؟ هذا ما كانت تفكر فيه

مريم بودي لتمحمح سيسيل مطلقة الكلام من فاهها بترجٍ:

- هل هذا كل شيء حضرة المحققة، هل أستطيع المغادرة؟

- مريم بودي بابتسامة متفهمة: نعم يمكنك، وشكرا على المعلومات القيمة التي زودتينني بها.

راهبة غير عادية

لم تكن هذه الراهبة من النمط التقليدي للراهبات، كل ما فيها يهدي إلى ذلك، طريقة جلوسها المتقنة جدا مثل امرأة من الطراز الفكتوري، التلويح باليدين يمينا وشمالا، كأنها تحاول أن تهيمن على الحديث، لغة جسدها التي تفضي للتماسك والقوة، أسلوبها في الكلام، وصوتها العميق الذي يدل على أن صاحبته تحظى بسلطة ما، طريقة وضعها لزي الراهبات الرسمي، كان كل شيء فيها مختلفا، كانت ببساطة تعرف ما تريد، تكلمت بحماس زائد، وكأنها تملك كل الوقت، وكأنها لم تعايش بعد صدمة الجريمة، أو تستخف بها؟ ربما كان هذا الشيء الذي يفضحها حماسها الزائد:

- هيلين: كما قلت لك سيدتي المحققة الكاهن مراد كان كالأب الروحي لنا جميعا، لذا من الغريب أن أشك في أي أحد من الدير، من أنه قد يضطر إلى قتله. طوال خدمته معنا كان حنونا، ودائم الابتسام والمودة.

تنهدت وهي تنحني برأسها للأسفل، وتشابك أصابع يدها مع بعضها البعض، وكأنما تلبست بشكلها هذا لوحة من أعظم لوحات دافينشي العذراء التي تدعي الله:

- هيلين: أدعو الله أن يغمره برحمته، لقد كان رجلا عظيما.

- مريم بودي: أمين، لقد لفت انتباهي شيء ما، ماذا كنت تقصدين بأن أحدا ما اضطر إلى قتله؟ هنا في هذه اللحظة بالذات استطاعت مريم بودي أن ترى ارتداء هيلين للباس الذعر والارتباك، وكأنها تلوي عنق الحقيقة بكلامها الذي قذفته من فمها، وكأنها حجارة ساخنة:

- هيلين: ما اقصده هو ان الكاهن كان لطيفا جدا لايضر أحدا ما، لن يقتله سوى مريض نفسي مهووس بالقتل أو... قاطعتها مريم بودي:

- أو أنه اكتشف شيئا شديد الخطورة ليكون سبب موته.

- هيلين: صدقيني حضرة المحققة، إن هذا الدير مسالم جدا لايحدث فيه أي ما تفكرين، ربما قتله لص ليسرق.

- مريم بودي مستغربة: هذا نفس الكلام الذي سمعته أذناي من رئيسة الدير، لماذا تتكلمون عن لص وسرقة الكاتدرائية ليست فيها أشياء ثمينة لتسرق، أم أن هناك فعلا شيئا يستحق السرقة؟

- هيلين مجيبة بارتباك: بالطبع لا... اعذريني أنا مرتبكة من كل ما حصل، ولا أعرف ما الذي يحصل من حولي؟ إذا كان هذا كل شيء أريد الاستئذان..

ضاقت عينا مريم بودي الواسعتان الزرقاوان، وهي تحفظ ملامح وجه الراهبة هيلين، فسقطت كلتا عينيها إلى شيء ما وبرز بريق ساحر مؤكدة حصولها على ما تريده.

- مريم بودي: فقط بضع أسئلة بعد، ويمكنك الذهاب بعدها،هل خدمتك الأولى في هذا الدير نظرا لأنك الأجدر بين الراهبات الأخريات؟

- هيلين: نعم، في الشهر الماضي أتممت خمس سنوات بالضبط في خدمتي لهذا المكان، لقد كنت قبلها أخدم في دير سانت أوغستين بفرنسا قبل تحويلي لهنا.

- مريم بودي:أين كنت ليلة وقوع الجريمة؟

- هيلين: بعد تناولي العشاء وغسل الأطباق بصفتي مكلفة بالمطبخ أنا والأخت نورة، أقمنا الصلاة بعدها ولكن... ثم عبست لتتوقف عن الكلام.

- مريم بودي: ثم ماذا؟ هلا أكملت من فضلك؟

- هيلين: لقد شاهدنا أنا ونورة إيميلي تركض في الممر الرئيسي الذي يؤدي إلى خارج الدير.

- مريم بودي باندهاش: كم كانت الساعة حينها.

- هيلين: بحسب الساعة التي كانت معلقة بالجدار فالساعة كانت تشير إلى الثانية إلا ربع ليلا.

مريم بودي وهي تشهد لحظتها المميزة، وعيناها تأخذان طريقهما في اللمعان بطريقتهما المعهودة، يا للدهشة، لمَ كذبت إيميلي بشأن مكانها ليلة الجريمة، هذا اكتشاف مهم جدا.

- مريم بودي: هل أنت متأكدة بأنها إيميلي، ولم تكن راهبة أخرى؟

- هيلين بكل ثقة: نعم أنا أؤكد لك بأنها هي الصغيرة الحجم فيما بيننا، ويمكنك سؤال نورة، ستؤيد كل ما قلته.

ربيع القتل

كانت الساعة تدق على الرابعة والنصف، عمدت مريم بودي رأسها على الكرسي ذي القامة القاسية لتدليكه، كي تخلصه من بعض التشنجات التي طرأت له فجاة مثل صعقة كهربية، تصيبك على غفلة عند محاولتك شحن موبايلك، نعام كانت مرهقة ولازال لها شاهدتان، لكن الانتظار لم يدم طويلا لتدخل راهبة ما في منتصف العمر بابتسامة دافئة، تزين وجهها البريء الهادئ من جميع التوتر، أو الانزعاج الذي قد يصيب أي امرأة في استجواب مع أشهر محققي البلد، تكلمت مريم بودي وهي تحفظ ملامح الراهبة لتقوم برسمية:

- أريد أن أستفسرك في أمر ما، نورة.. هذا اسمك صحيح؟ أومأت لها نورة لتكمل، هل صحيح بأنك شاهدت الراهبة إيميلي في الساعة الثانية إلا ربع تجري في الممر المؤدي إلى البوابة؟

- نورة: بانزعاج طفيف يطفو على ملامحها مثل الخشب الذي يطفو فوق الماء: في الحقيقة كانت العتمة في الممرات لذا لا يمكنني أن أؤكد لك إذا كانت تلك إيميلي أم راهبة أخرى، ولكن هيلين تصر على أنها إيميلي من لمحناها.

- مريم بودي: ولماذا تصر هيلين على أنها إيميلي؟

- نورة: لأن إيميلي هي الضئيلة الحجم بيننا، هذا ما تردده ومعها حق.

- مريم بودي: اه، صحيح لقد ذكرت لي هذا أيضا لكن يمكن لأي أحد ما أن يتنكر على أنه راهبة، ويدخل إلى الدير خصوصا أن الدير بلا بواب، ويمكن حتى أن يكون رجلا قصير القامة متخفيا.

قذفت مريم بودي كلماتها الأخيرة بافتراض ملزم، لتشهد ارتسام شواهد الذعر والارتجاف في صورة نورة، وجسدها كقطة حديثة الولادة، ترتجف من ابتلال جسدها بفعل المطر:

- نورة بخوف: يا إلهي رجل، أيعقل هذا أيتها المحققة؟ إذا كان صحيحا ما تقولين، فجميعنا بخطر.

- مريم بودي: لا داعي للذعر عزيزتي، فعملي هنا الكشف عن هذا اللغز، لتومئ لها نورة بتفهم مطلق كفتاة مطيعة تجزم أن معلمتها دائما الصواب.

- مريم بودي: والآن، قولي لي عزيزتي: ما الذي يدفع ايميلي أو شخصا آخر للمشي في ساعات متأخرة بالليل؟ أهناك أشياء ثمينة في الدير توجب السرقة؟ خصوصا أنه

تزامن مع جريمة قتل الكاهن التي حدثت في تلك الليلة بالضبط، فالأمور مترابطة مع بعضها البعض.

- نورة: اممم... هي صحيح أن إيميلي فضولية جدا وتسترق السمع أحيانا، وتريد الظفر بجميع الخبايا، لكن لا أعرف ربما اكتفشت بأن هناك شيئا ثمينا ما في الدير ربما، أو ربما كانت تتطفل على شيء ما؟ لكن من غير المعقول أنها قد تتسبب بمقتل أي شخص خصوصا الكاهن.

لم يدم الاستجواب سوى دقائق معدودة، لم تأت بأي معلومات جديدة، لتسمح مريم بودي لنورة بالانصراف.

دقات خفيفة شهدها الباب الخشبي البني، لتطرأ آخر شاهدة من ورائه، والتي لم تكن سوى الراهبة صوفيا، ربما تمتلك بعض المعلومات التي قد تفيدني، لأنها الراهبة التي تتقاسم أعمال التنظيف بجانب إيميلي، ربما تعرف بعض الأشياء.. قالتها مريم بودي في أعماقها مستبشرة بالتي جلست أمامها.

- مريم بودي: أريد أن أسألك عن النظام الذي يتبعه الدير هل يمكنك محادثتي بشأنه؟

- صوفيا موافقة: بكل سرور، يدق جرس الدير يوميا في الخامسة صباحا، بعد الاستيقاظ نذهب للصلاة جميعنا في الدور الأرضي أين توجد الكنيسة الصغيرة،

ونصلي صلاة التسبحة التي تبدأ في الخامسة والربع، إذا كأن هناك قداسا نحضره، وإذا لم يكن فنبدأ عملنا اليومي بالتنظيف، يدق الجرس مرة أخرى على الساعة الواحدة تماما، لتقديم الغذاء ويكون ربع ساعة، والذي تتناوب عليه الراهبتان هيلين ونورة، بعد الانتهاء من الغذاء نذهب للورشة، ونقوم بالتطريزفي الورشة التي تقع وراء الدير. ثم يدق الجرس في تمام الخامسة مساء، لنصلي صلاة الغروب، أما الطعام فيقدم على الثامنة. هذا كل شيء.

- مريم بودي: ألم تلاحظي غياب أي راهبة عن الصلوات أو مواعيد تقديم الطعام البارحة؟

أخذت صوفيا وقتا لتيجب وهي تجوب بعينها الغرفة بحزم كمن تتذكر شيئا ما لتجيب بالنفي.

- مريم بودي، وكانها تذكرت شيئا ما: هل تعرفين عيد كاندلماس؟ هل تقيمونه في ديركم؟

- صوفيا بحماس: نعم، عيد تطهير العذراء، ربما ما يميز هذا العيد هو أننا نصنع العديد من الحلويات اللذيذة، ونحتفل به كل ربيع ماي، غير أنني لست من معجبي هذا الشهر كثيرا أحب أن أطلق عليه شخصيا ربيع الموت.. ضاقت عينا مريم بودي لتردف بفضول:

- لماذا؟ هل يقتل فيه الناس؟

- نورة: لا، بل يصادف موت العديد من القديسين والكهنة في هذا الشهر بالذات. وهو نفس الشهر قتل فيه الكاهن مراد ألا تجدينها بأنها مصادفة مخيفة.

- مريم بودي: فعلا، أنا أؤمن بأن الربيع ليس دائما ورديا مثل القصص الخرافية الزهرية التي نسمعها عادة قبل النوم، بل الحقيقة عكس الواقع، الربيع له لمحة من بل السواد الذي يتخلله من جميع حوافه. أتمت مريم بودي كلامها بغلق مذكرتها ملمحة إلى انتهاء الاستجواب.

مديرة الدير

أعطت مريم بودي لقدميها الحق في اقتيادها إلى المكان المنشود كالسجين المحكوم عليه بالإعدام المقتاد إلى المقصلة، طافت حول الدير وهي تلمح اخضرار الطبيعة حوله، ذلك اللون الذي يهبك الاطمئنان والراحة، والنقاء والتوازن والتفاؤل، كما يهب البعض الآخر القدرة على إخفاء ما سولت لهم أنفسهم القيام به، إن هذه الطبيعة الهادئة التي لا يكاد يسكنها أحد سوى بعض الخنازير التي لمحتهم مريم بودي يتراقصون في الحقول القريبة من الدير، كفيلة بإخفاء كنز علي بابا، ولكنها أبصرت أيضا شيئا ما جعلها تنتهج الطريق المؤدي إليه، آه، إنه المعمل الصغير الذي ذكرته كاثرين الذي تعمل فيه الراهبات بعد الانتهاء من مهامهن اليومية...، عتيق جدا، وتقليدي آلات الخياطة والتطريز المدمجة، وبعض القماش الحريري، ولفات النسيج المستندة على الجدران الهزيلة مثل رجل عجوز يحمل فوق ظهره أطنانا من الإسمنت، لقد كان كل شيء قديما، لكنه منظم. عاينت شيئا ما شد بصرها لوهلة.

- إنه ذاك الرمل مجددا، لماذا يوجد رمل أصفر في مساحة خضراء ذات تربة بنية، استفسرت مريم بودي

نفسها والعديد من الأسئلة تمتطي سراج تفكيرها، مما يزيد الأمر تعقيدا، التفتت للخلف لتشاهد دخول الراهبة الأم للمشغل وعلامات التوتر بادية على وجهها.

- مريم بودي: يا لها من مفاجأة أيتها المديرة، ظننت بأنك مشغولة جدا، اذ يتعسر عليك ترك مكتبك والقدوم حتى هنا.

- مديرة الدير: في حقيقة الأمر، لقد فكرت بكلامك كثيرا .وقررت التعاون معك، ففي نظري أن لمصلحة الديروسمعته اهمية كبيرة عندي، لا أريد أن أفسدها لهذا قررت أن أعترف لك بكل ما أعرف.

- مريم بودي: يسعدني كثيرا أنك تفكرين بهذه الطريقة أيتها الراهبة القديرة، يمكنك البدء وكلي آذان صاغية لك.

- مديرة الدير: في الليلة التي وقعت فيها الجريمة حدث شيء ما، الأخت كاثرين انسحبت بعد العشاء، ولم تحضر صلاة الغروب بحجة إصابتها بصداع مفاجئ.

- مريم بودي: امم... فهمت، لقد قالت لي بأنها أصيبت بصداع هذا صحيح، لكن لا أعرف ما الغريب، أو ما يدعو للريبة في هذا الأمر؟ انفلتت شهقة الاندهاش من مقلتي الراهبة الأم لتجيب بعدما تداركت الأمر:

- على عكسك، أنا أعتقد بأن الأمر يتلبس كل التكهن والشبهة أيتها المحققة، فعلى حد علمي أن التفاصيل الصغيرة في أي موضوع هي التي تمكننا من الأشياء الكبيرة، جميع الأمور مترابطة فيما بينها.

- مريم بودي: يسرني بأنك تدققين في الأشياء الصغيرة يبدو بأنك تجيدين أعمال رجال المباحث مثيرة للاهتمام.

- رئيسة الدير: هروبا من الأعمال الروتينية أيتها المحققة تجعلك تبدين الاهتمام بأشياء لم تكن لتراودك في حياتك كلها، ولكن دعيني أنهي كلامي أرجوك. مريم بودي رافعة رأسها للتي تقف أمامها، ولغة جسدها تدل على الحيرة، أما النظرات المتنكرة بالطيبة والود، فهو الذي كان يقلق مريم بودي في هذه اللحظة:

- مريم بودي:أكملي أرجوك.

- مديرة الدير: الأخت كاثرين ذلك اليوم لم تكن على طبيعتها. قاطعتها مريم بودي:

- هل يمكنك الشرح أكثر؟

- لقد أخطأت في عدة أعمال مكتبية وكأنها لم تكن تدرك ما تقوم به، شاردة في كل دقيقة تمر من ذلك اليوم البائس، عندما تعطين لسلوكها شيئا من الاهتمام والملاحظة، ستجدينها تدور حول شيء يشغل تفكيرها،

مثل دوران الناعورة المدفوعة بمياه الساقية، أما الأخت كاثرين فتفكيرها الزائد مدفوع بأسباب ذات أهمية حتما، عدا عن دلالات السرحان البادية على وجهها المتعب، كأنها تحمل في جوفها المتعب أياما من التعاسة المخبأة منذ آلاف السنين.

- مريم بودي: إن هذا فعلا أمر يدعو للشك، لكن لا تنسي بأن الناعورة التي تعتبر كاليتيمة المطيعة، لها قدرة عجيبة على رفع المياه من أسفل إلى أعلى، هذا مجرد مثال، ولكن في الحقيقة هل لهذه الأخت كاثرين القوة بأن تفعل شيئا كبيرا؟ أو بالأحرى القتل؟ هل هذا ما تلمحين إليه أيتها المديرة؟

- مديرة الدير بانفعال: لا، معاذ الله، أنا فقط أقول أتحدث بما لمحته عيناي، أما من يكون القاتل فقد يكون سارقا، هذا ما ذكرته المرة الماضية، بخصوص كاثرين، فقد أرقني حالها وفقط.

- مريم بودي: إذا يمكنك البدء بأن تقولي لي لمَ الباب الجانبي الأجوري للكاتدرائية مغلق، ولا أحد يحوز المفتاح غيرك. شاهدت مريم بودي دلالات الخوف والهلع تذهب وتختفي من عيني الراهبة الأم، لتنطق بعد صمت طويل:

- إن جميع الأرشيف والمستندات، والوثائق السرية والعتيقة منذ تأسيس الكاتدرائية إلى يومنا هذا موجودة

خلف ذلك الباب الأجوري الصغير، ونظرا لأهمية وقيمة هذه الوثائق معنويا، وخصوصا ماديا، فمن واجبي أخذ جميع التدابير والاحتياطات بعدم إعطاء أي أحد نسخة عن المفتاح وكما يقال: لا تاريخ بدون وثائق. أنا أشدد على حماية ذلك المكان، فقط تخيلي لو تهوي هذه الوثائق في أيدي الأشخاص السيئين، ستحدث كارثة لا تحمد عقباها، ونحن نتعامل مع الكاتدرائية كأنها ملكية تاريخية عتيقة للفاتيكان، وللجزائر أيضا، لهذا كنت أؤكد منذ قليل على افتراضية وجود سارق أراد أن يحوز على هذه الوثائق القديمة القيمة، كي يبيعها في المزادات حول العالم، فربما كان هذا السبب الذي أدى إلى قتل الكاهن، من يدري؟ أتمت الراهبة كلامها.

الأم كلامها بأريحية، ما بدد نواة الارتياب التي كانت تتخبط بين جدران ذهنها المنيع، لتردف بابتسامة كأنها ملكت جميع الثقة في هذا العالم:

- لدي فرضية أخرى، ما رأيك أن يكون هذا السارق من داخل الدير؟ لاسيما أن هناك بابا جانبيا للدير، وقريب من الكاتدرائية ما يسهل على أي كان الدخول والخروج بأريحية تامة، ومن دون أن يراه أي أحد، بالإضافة أن البواب مختفٍ فإن هذا يعزز افتراضي.

سرت رعشة طفيفة على جسد الراهبة الأم، لم تمر مرور

الكرام على عيني مريم البودي القناصتين المترصدتين اللتين تتبعان كل شيء، لتردف بابتسامة واسعة مغادرة شحوب وجه التي خلفها:

- طاب مساؤك سيدتي.

سحبت مريم بودي هاتفها بمجرد رحيلها من الدير طالبة رقم مارشملو، الذي سارع بدوره للإجابة حيث قاطعته قبل أن يكمل كلمة ألو:

- أريد التحقيق في جميع السجلات الشخصية العامة والخاصة بالدير، وجميع المعلومات عن كل روح تسكن هذا الدير بالأخص سجل الاعتقالات، المحادثات الهاتفية، لقطات الكاميرات إن عثرت في الأزقة المقابلة للدير، وتقرير فحص القرائن من الأدلة التي عثرنا عليها، والتكنولوجيا المستخدمة في الاتصال، إذا اشتبهت في أي شيء غدا صباحا على الثامنة فوق طاولة المكتب. وأغلقت الخط دون فسح المجال له للتكلم، ليتأفف في الجهة المقابلة من الخط. لم يكن يدري كيف سيزف لها ما اكتشفه، لا يعقل بأن الذي حدث مصادفة، فهو بحد ذاته لا يؤمن بالصدف حتى ولو كانت حقيقية، الصدفة غريبة يمكنها أن تأخذك إلى دوامة التفكير اللامتناهي والمعقد لكن إلى حد ما، فقد يتدخل القدر من وقت لآخر ليفرض وجوده في المشهد التراجيدي لمسرحية إغريقية

مستوحاة من الأساطير القديمة، لكن في أرض الواقع، وفي عمل البوليس يعتبر القدردفعة، أو تذكرة نحو اكتشاف خيوط الجريمة المعقدة.

نذير شؤم

كان عداد ساعة الحائط الخشبية المعلقة في جدار المطبخ كالمعلم المتفاني، الذي يراقب تلاميذه بصرامة طوال الوقت شاهدا على موعد العشاء ككل ليلة، ستة أشخاص جالسين جنبا لجنب متقابلين، واختتم الشخص السابع المجموعة بجلوسه في مقدمة الطاولة الطويلة، التي تشبه بساط استقبال الملوك المصنوعة من خشب السنديان العتيق المقاوم لعلامات الزمن والصلابة الشديدة، التي تصدت لجميع العواصف والكوارث المارة عليها، ويا ليت نفس الصفات يتمتع بها الجالسون على تلك الطاولة، خصوصا تلك التي أطلقت شهقة خفيفة عند انسكاب قارورة ملح الطعام من يدها، لتستقطب جميع أنظار الحاضرين.

- سيسيل ممسكة وجهها بيديها بحسرة: يا إلهي لقد سكبت الملح من دون قصد، إن هذا نذير شؤم.

- مديرة الدير وعلامات الصرامة تجهش على محياها: كفي عن تفسير جميع الأشياء التي تحدث في هذا العالم على أنها نُذُر سيئة، عملنا هو طمأنة الناس، وزرع أصل الإيمان في أفئدتهم، وليس الخوف والفزع، أرجو منك أن تذهبي وتصلي صلاة التوبة، وأن تطلبي من الله أن يعفو

عنك بسبب ما تقترفينه من دب الذعر والقلق في نفوس الناس.

قامت سيسيل ببطء مثل شخص دخل في غيبوبة تامة، ولم يستفق إلا بعد سنين، ليتفاجأ بأن العالم تغير من حوله، وأن عائلته تركته وأكملوا حياتهم، كانت تسوق رجليها بحذر والإحباط يتخلل كل ذرة أكسجين في رئتيها، استجابة لدعوة الراهبة الأم، لطلب الغفران عما تعتقده، بل تؤمن به، وماذنبها هي؟ إنها تنتمي إلى مجتمع زرع فيها هذه الثقافة منذ صغرها كالحديقة التي يشكلها البستاني بمختلف الأنواع، والأصناف العشبية، والورود حسب أهوائه، ذهبت انصياعا لمقام الراهبة الأم.

- إميلي: ولكن في كلام سيسيل حقيقة، ففي الديانة المسيحية يهوذا سكب الملح فوق الطاولة في العشاء الأخير، لتقاطعها نورة مكملة الحديث:

- وفي ألمانيا أين ترعرعت، نعتقد أن من يسكب الملح فأل شؤم أيضا.

- الراهبة الأم معلنة عن فقدانها لصبرها:هذا يكفي، ما كل هذه الترهات التي تتفوهن بها؟ هل لعبت برؤوسكن؟ لا وجود لفأل سيئ، وفأل حسن، كل هذه الأشياء نسيج من الخرافات والأساطير الشعبية القديمة التي تخطاها العلم والدين، يجب أن تخجلن عند لفظكن

لهذه الأمور، نحن مجتمع ديني متماسك ومترابط، وليس عشا لنسج السذاجة، والمغالطات والوهم كل الاشياء مقدر لها الحدوث في هذه الدنيا، سواء أعجبنا ذلك، أو لا، لا يمكننا أن نستمد إيماننا من معتقدات خاطئة، أكل الدهر عليها الغبار، أرفض رفضا باتا مناقشة مثل هذه المواضيع مجددا على طاولة العشاء.

اختتمت كلامها معلنة عن فض الكلام، خارجة من المكان بقسوة، تاركة الرياح الهائجة من خلفها تلفح وجوه الجالسات كنار يصعب السيطرة عليها.

- هيلين بنبرة مستفزة: من يلعب بالنار يحترق بها، أرجو من تلك الغبية التي تؤمن بخرافات العجائز والصبيان أن تقبع في الكنيسة طوال الليل، كي تتعلم ماذا تقول في المرة القادمة وتنهض من سباتها الذي طالماعززته الغفلة، لا أصدق بأنه لازال هناك أشخاص يفكرون بمثل هذه البلادة.

- إيميلي بابتسامة غامضة : بل أنت كفي عن صب الزيت فوق النار، أنا متأكدة بأنك أنت من تنقلين أخبارها كلمح البرق وتحرضين الراهبة الأم عليها، ألا تخجلين من نفسك؟ أنا التي لا أصدق بأنني أشاطرك نفس المكان ، شخص شرير وحقود مثلك لن أعطيه قطرة ماء، ولو كنت صائمة في يوم صيفي طويل.

- هيلين وشرارات الغضب تتطاير من عينيها: الذي يعاشر الحداد لابد وأن تصيبه شرارة ناره، أيتها المدمنة اللعينة، أنت تشاطرينها في الغباء، لهذا سيصعب عليك فهم ما أقوله، لقد رأيناك أنا ونورة تهرعين في الممرات ليلة قتل الكاهن، لقد كنت أنت التي تترصدين بالمكان كي تذهبي وتفعلين فعلتك وتقتلينه. ساد صمت طويل، وعلامات الدهشة تغطي وجوه الحاضرات بالمكان، ومن بينهم نورة التي عقدت حاجبيها لأن أنظار الجميع كانت صوبها، لكي تنفي أو تجزم ما قالته هيلين، لكن فتحت إميلي شفتيها لتجيب بنفس نبرة الغضب، إلا أن الراهبة المسؤولة التي كانت تراقب الموقف من بعيد قررت أخيرا التدخل بنفس الوتيرة:

- لقد أعمانا دخان شجاركما أيتها الراهبتان، أرجو منكما احترام المكان الذي أنتما فيه، نحن لا نتسامح مع هذه الألفاظ والمواقف، وخصوصا تقاذف الاتهامات بينكما، هذا ليس لعبا، وقت العشاء قد انتهى، أرجو منكن الذهاب لإقامة الصلاة والنوم، وهذا يكفي لنهار اليوم، وأرجو بأن ما وقع اليوم لا يخرج من هذه الغرفة، لأنه إن علمت الراهبة الأم فسيكون عقابكما ثقيلا جدا لتتحملاه.

في هذه الأثناء كانت قد وقعت حرب ومعارك النظرات القاسية بين الراهبتين اللتين كانتا ترويان كل أنواع القسوة واللوم، والغيرة والحسد، وأمارات الخوف والذهول عند البعض الآخر، هذا ما كانت تلمحه كاثرين وهي تردد في أعماقها لا أحد يقوى على تجاوز دائرة النار، فنار الحقد عمياء تصيبك بشعلة نارها لا محالة.

البواب

ولجت مريم بودي لمكتبها في صباح اثنين في ذلك الحي العريق من ديدوش مراد، الذي يحمل اسم أصغر قائد ثوري يستشهد في الثورة التحريرية الجزائرية، يقع مكتبها في شقة صغيرة في أحد أزقة ذلك الشارع الرئيسي، الذي يتخلله العديد من المطاعم، والكافتيريات، ودور السينما، عيناها المنتفختان كانت تحكيان الأرق الذي زاولها مثل صديق طفولة مزعج طيلة الليلة الماضية، وآخر صورة رسمت في رأسها كانت لمسرح الجريمة والوجوه التي كانت ترمز للبراءة والطهارة ولكنها كانت عكس ذلك، فالكل مشتبه به، هذا ما توصلت إليه بكل تأكيد، أدخلت مفتاح المكتب في القفل، لكن القفل كان مفتوحا من قبل، اه جيد لقد بدأت بالنسيان، يبدو بأن دلالات الكبر قد نالت مني، استذكرت خصلات الشيب التي بدأت بغزو شعرها الأسود، لتقطب حاجبيها، الحمد لله على نعمة الصبغة، لترتاح تعابيرها مرة أخرى، دخلت تلك الغرفة الصغيرة، لتجد مارشملو واقفا أمام النافذة الطويلة ذات التصميم الفرنسي القديم، كان يقف وقفة هتليرية شامخة، غارقا في تفكيره الصاخب الذي لا يهدأ لهنيهة، بمجرد أن أقفلت الباب بضجة خفيفة حتى استنفر من

مكانه منتبها لحضورها في الغرفة، ليتقدم ناحيتها ممسكا بملفات تملأ كفيه حتى شعر رأسه متمايلا يمينا وشمالا نتيجة لثقل الملفات والسجلات، كالسفينة التي تعبث بها الرياح كما تشتهي نظرا لفقدانها البوصلة، سقط على الكرسي إعياءً بمجرد صفه للوثائق. مريم بودي وهي تكتب شيئا في ورقة:

- إنا لا ندفع لك كي تستريح، بل كي تعمل. موجهة كلامها لمارشملو الذي عقد شفتيه احتجاجا على كلامها، لكنها أكملت كلامها بالرغم من ذلك، هل جمعت المعلومات التي طلبتها منك؟

- مارشملو:نعم، جمعت كافة المعلومات عن الراهبات وعن الكاهن، ولكن سيسيئك معرفة شيء ما!

- مريم بودي باستفسار:ما هو؟

- مارشملو: بعد عمليات بحث متواصلة، وجد البواب مقتولا، في غابة بوشاوي منذ أربعة أيام.

- مريم بودي: لقد ذكرت الراهبة المسؤولة عن أنه مختف منذ ثلاثة أشهر، يا للأسف كنت أعول على أنه يعرف شيئا لهذا اختفى خوفا على حياته، أو أنه مشتبه به، لكن يبدو بأن القضية آيلة للتعقيد أكثر فأكثر، لا أصدق بأن الحظ يعاكسنا، هل يمكنك التطرق لكيفية القتل؟

- مارشملو: طعن بأداة حادة، لم يستطع الخبراء تمييزها، ربما سكين، لكن ليس حادا أو بلطة... لكن من المؤكد أن نفس السلاح استعمل في قتل الكاهن، هو نفسه الذي قتل به البواب.

- مريم بودي: لا شيء يدعو للجزم بعد، أريد رؤية تقرير الوفاة واترك لي جميع الملفات لدراستها، وأرسل فرقة من رجال المباحث لمراقبة المكان بتخف، بما أنه لا توجد كاميرات في تلك الغابة، فإنها تعد مكانا مثاليا لحدوث أمور مشبوهة، وأكيد أن القاتل سيأتي إلى المكان مجددا.

خرج مارشملو بسمع وطاعة لرئيسته لإتمامه المهمة، مما ترك لها المجال لتنكب على الملفات المقدمة لها فوق المكتب بشهية مراهق بدين، لا ينكب عن رغبته بالحلوى، بعد خمس عشرة دقيقة بالتمام.. توغل الغرفة بهدوء كي لا ينغص الهدوء على رئيسته التي بمجرد أن أحست به في الغرفة أغلقت مفكرتها، وعيناها تتوهجان ببريق لامع عرف مارشملو معناه، ما إن لمحته حتى قالت له:

- مارشملو أنت من الجنوب، صحيح؟

- مارشملو:نعم أنا كذلك، فكما تعرفين أنا جد فخور بأصلي... قاطعته قبل أن يكمل:

- من أي ولاية بالضبط.

- من بشار، قالها ورنة الافتخار في صوته.

- هل يمكنك إجابتي على هذا السؤال: لماذا يوجد رمل من الصحراء في ساحة الجريمة؟

- مارشملو: ربما أحد ما جلبه معه بحذائه، قالها مارشملو مفترضا.

- مريم بودي: أو ربما هناك شيء ينتمي إلى الصحراء مخبأ في ذلك المكان !

قامت من مكانها مبتسمة ابتسامتها الماكرة، وأخرجت ورقة سلمتها لمارشملو

- هاك، أريدك أن تحجز في أول طائرة لفرنسا، وتذهب لهذا المكان، لقد كتبت لك كل الاستفسارات في الورقة، أنا أنتظر منك أخبارا سارة.

قاطعها رنين الهاتف الذي لم ينفك عن الإزعاج مثل محرك سيارة متهالك، يعلن عن موعد توقفه، ضغطت على زر الإجابة، لتبدد ابتسامتها، وفرسان الخيبة تقبع على تجاعيد جبينها، ليكسر مارشملو صمتها الذي دام لفترة:

- هل كل شيء على مايرام؟

- مريم بودي بحسرة: جثة أخرى !!

جثة أخرى

تهالكت مريم بودي فوق الكرسي الخشبي العتيق، وهي تضم يديها لرأسها بإحباط، وكأنها تقتبس دورا ملهما من أحد الأساطير الشعرية، مثل ملحمة الإلياذة، لم يفهم مارشملو ما كانت تعنيه بكلامها جثة أخرى؟ معقول! لكن عز عليه رؤيتها وهي في موضع قلّ ما تكون فيه، ترى من مات؟ لماذا شرعت أجنحة الحزن على مصراعيهما، واستسلمت لفضاء القنوط؟ صمم على أنه هو الذي سيكون مخلصها من هذه الهزيمة، ليتكلم بعدما ارتسمت ملامحه بالشجاعة:

- جثة من؟

- مريم بودي وهي ترفع رأسها له: هذه المرة كانت إيميلي يا مارشملو، ولم أستطع حمايتها، قالتها مريم بانكسار.

- مارشملو: ماذا؟ جريمة أخرى في الدير؟ تفاجأ مارشميلو وهو يتلقى الخبر باندهاش كبير. توقفي عن لوم نفسك آنستي، هذا سيزيد من عزمنا على حل لغز هذه القضية بالذات.

- مريم بودي: بالطبع مارشملو، سأحرص أنا خصيصا على لف حبل المشنقة على المجرم، أيا كان يكون، وهنا ضاقت عيناها... هذا ما لاحظه مارشملو.

- مارشملو: للأسف كانت على بعد خطوة فقط من معرفة شيء ما، أليس كذلك سيدتي؟

- مريم بودي: بالطبع، يبدو بأن من يكتشف شيئا ما سيكون مصيره دائما هو الموت، الكاهن، البواب، والآن إيميلي. مارشملو أعتقد بأن ما يحدث في الدير شيء خطير جدا، زبما ستكون من أخطر القضايا التي تمر علينا. وبمجرد إن أكملت جملتها الأخيرة هبت واقفة كالتمثال، وكأن جسمها لا يخضع لقانون الجاذبية، لحق بها مارشملو مسرعا لوجهة كان يجهلها ولكن شكوكه تبددت بمجرد أن لمح الدير من بعيد، كانت سيارات الشرطة تحاوط المكان مثل الحصن من كل مداخله ورجال المباحث بالزي الأزرق الليلي، أزرق منتصف الليل، أو الأزرق النيلي الذي يشبه لون السماء في ليلة اكتمال القمر دلجت مريم بودي إلى الدير بمشيتها المؤججة بالسرعة إلى أن وصلت إلى ماوراء الدير، المكان الذي شهد الليلة الماضية أعنف جرائم القتل في تلك الرقعة الخضراء، التي كانت واقفة تتأمل جمالها مساء البارحة فقط لتتحول بعد سويعات لرقعة دموية حمراء، لمحت

وجود جميع الراهبات هناك، اللائي كن يتشاركن نفس الوقفة المرتبة مثل كلاب صيد جيدة التدريب، ينظرن لمكان الجثة المغطاة بالإزار الأبيض، وكل عين لها شعور مختلف يغمرها، الحزن، الخيبة، الجمود، الدموع، الحداد، الخوف، الهلع والنظرات الماكرة؟

نزعت مريم بودي الغطاء الأبيض الرمادي الذي يغطي إيميلي، أو بالأحرى جثة إيميلي الآن بيديها المرتبكتين، فهي أساسا لا تعرف ما الذي ينتظر عينيها المرتقبتين، كان الإزار الأبيض مرصعا ببعض نقاط الدم، خصوصا عند موضع معين، يبدو أنه مكان الجرح الذي أودى بحياتها، وهو في جهة الرأس. انكشف الستار أخيرا عن الجثة الهامدة، شعرت مريم بودي بانقباض في صدرها عكر هدوء خلجها، وعيناها اللتان كانتا تتفحصان الجثة بكل تفاصيلها، شعرها المخالط بالدم كالزجاج المكسور ووجهها الشاحب الذي يتقمص لون الإزار الذي كان يغطيها، عيناها الغائرتان اللتان تسبحان في فضاء الظلام وتفاصيلها التي كانت تنبض بالحياة فيما مضى أصبحت ساحة ملعب مهجورة من كل تفصيل، سوى من الجماد، غير أن شيئا ما أو أحدا ما قاطعه، يظهر بأن الضربة كانت أكثر مما تتحمل يبدو بأن وصمة الجريمة ستلازم

هذا المكان للأبد. يداها كانتا مغروستين بالتراب، بدت كما لو أنها كانت تقاوم القاتل، أو أنه كان ينوي دفنها هنا في هذا المكان المغمور بالتربة، فهذه المساحة آمنة لإخفاء الموتى والدلائل، اه بينغو، نمت ابتساة ماكرة متحمسة على خلقة مريم بودي وهي تلتفت بعناية كطفل صغير وجد الإجابة الصحيحة ونادت على مارشملو كي توشوش له شيئا ما في أذنه باكبر سرية ممكنة، وما جعل هذا الأخير ينبت بأجل بصوت منخفض ماشيا ناحية رجال البوليس، اغتنمت مريم بودي هذه الدقائق لتطالع الوجوه التي كانت مصطفة أمامها، لاحظت خوفا ونظارات انزعاج من وجه ما، لتتأكد الفرضيات التي كانت تدور في رأسها. أتى رجال البوليس بسرعة رفقة كلابهم المتدربة، بعدما طلب منهم مارشملو القيام بمهمة ما، اشتمت الكلاب شيئا ما في الجزء الخلفي الشمالي من الغابة فانبسطت أرجلهم نحو رقعة ترابية معينة، كانت التربة هناك منبوشة توقفت الكلاب اللاهثة أمام تلك المساحة بالذات ليبدأ رجال البوليس أعمالهم، وفي أيديهم بلطات، بدأوا الحفر بنشاط، وبلا كلل أو تعب، وكأنهم يصارعون الغبار وليس التربة توقف أحدهم لأن بلطته اصطدمت بشيء قوي، يا ترى ما هو؟ نادى على المحققة كي تستطلع الذي وجده وكانت المفاجاة.

- مريم بودي بنظرة انتصار: إحساسي لا يخيب أبدا، موجهة كلامها لرجال المباحث الثلاثة الذين ينتظرون أمرها، أريدكم أن تعاينوا الحمض النووي لهذا الفأس، وتؤتوني بالتقرير النهائي.

- مرشملو بابتسامة فخر متسائلا: كيف عرفت بأن الدليل في المكان؟

- مريم بودي محافظة على نفس الابتسامة والنظرات: لأن أداة الجريمة هذه المرة ليست نفسها التي قتل بها الكاهن والبواب.

- مارشملو باندهاش: هل هذا صحيح؟ هل يمكنك التوضيح أكثر؟

- مريم بودي تاركة إياه يحدق فيها بنظرة انزعاج: كل في أوانه المناسب، لا تستعجل على شيء، ثم أني أوكلتك بمهمة، اذهب قبل أن ينتبه إليك أحد. مرت من أمامه غير آبهة لإجابته نحو ذلك الشخص الذي انتبه لوجوده الآن، ذلك الشخص السمين الذي يتصبب عرقا من هذا الحر الذي انفجر فجأة، وبدون سابق إنذار كأنه يعاقبنا على شيء لم نفعله. توسط الطبيب الشرعي الحضور أمام جثة إيميلي وهو يعاينها بدقة لبضع دقائق، لتتكلم مريم بودي مستفسرة عن بعض النقاط المبهمة في الجثة:

- مرحبا، ما هو تقريرك الأولي عن الوفاة؟

- الطبيب وهو يتأمل تفاصيل الجثة: أستطيع أن أقول بأنها قتلت بشيء حاد كالفأس أو السكين.

- مريم بودي: هل يمكنك معرفة منذ متى حدثت الوفاة؟

- الطبيب ونظرات التمعن لا تفارق وجهه:لا أعتقد بأنها حدثت منذ وقت طويل، ربما وقعت هذه الليلة بالذات، فالجثة لم تبدأ بالتحلل بعد، وليست باردة جدا، ولكن يفضل نقلها إلى التشريح، فإن هذه الحرارة ستعرضها إلى التعفن السريع، يمكنني أن أزودك بالتقرير النهائي بعد تشريح الجثة، قالها وهو يواجه صعوبة في النهوض بالنظر إلى وزنه الزائد، أخرج منديلا جافا ليمسح به حبات العرق المتساقطة على وجهه ومؤخرة عنقه، لينادي على سيارة الإسعاف المركونة أمام مدخل الدير منذ البداية لحمل الجثة، ثم وجه كلامه للمحققة:

- سأرسل لك تقرير التشريح مساء اليوم، لقد أنهيت عملي هنا الآن، سأوقع على إفادتي وأغادر

- مريم بودي: شكرا لحضورك، سأكون بانتظار التقرير. بعد ذهاب الطبيب اتجهت مريم بودي ناحية الراهبات اللائي كن في مكانهن منذ البداية، وهن يطالعن ما كان يجري حولهن بعلامات فارقة لكل واحدة منهن.

- مريم بودي وهي تقترب ناحيتهن: هذه المرة لن يكون الاستجواب طويلا مثل المرة الماضية، لذا لا تقلقن، لن أعطلكن عن أعمالكن كثيرا.

تسلل مارشملو الى ساحة مقدمة الدير الشمالي الذي كان خاليا نوعا ما، أو هذا ما كان يظنه، وقف أمام النافورة وهو يطالع سطح الماء الذي كان يلمع تحت أشعة الشمس، وأوراق الورود التي كانت متساقطة فوقه، تسبح فيه كالأسماك الصغيرة في النهر، ليتجه بنظره للتمثال وعيناه تأخذ طريقها نحو الصليب، ليبتسم ابتسامة خفيفة عندما تذكر ما قالته له مريم حوله "ستراه هذه المرة في اليد اليسرى"، لقد كانت محقة كعادتها، جالته ابتسامة لم يفهم ما كان بصدد فعله فبرمشه عين كان يتسلق النافورة، ثم التمثال بصعوبة نظرا لقصر قامته، كادت أن تخرج منه صرخة كصيحة الديك عندما انزاحت رجله عن التمثال، لكنه قرر أن يستعيد ربطة جأشه كان في عالم آخر وهي يطالع الصليب الذي أحكم بقبضته عليه هامسا: "أنت لي الآن".ليلفه في قطعة قماش صغيرة بعناية، كأنه طفل مقمط ، ويأخذ مكانه في جيبه.

ولكن كانت هناك أعين تطالعه من النافذة، عينان تكادان تخرجان من شدة الدهشة، وذهبت مسرعة ناحية التليفون طالبة رقما ما :

- سيدي، إننا في ورطة !

دبابيس

كانت مريم بودي غائرة في حجرة مكتبها المتواضع المؤلف من عدة أدراج صغيرة، وأخرى كبيرة مصنوعة بالتساوي، وحسب الحجم من الصغير إلى الكبير، موضوع فيه مختلف الإطارات التذكارية لعدد الوجهات التي زارتها في عطلها منها باريس، كندا، البرازيل، لكل تذكار حكاية يروي فصولها الزمن. احتوى المكتب ذو اللون البني المائل للشكولاطة على شهادات فخرية، وتكريمات كانت شاهدة على جهودها في المشاركة على حلول ألغاز وقضايا صعبة ومهمة، مغروسة فوق سطحه، وأخرى معلقة تلسعها الشمس التي كانت تتسلل خيوطها السحرية من خلال النافذة المستطيلة لبرهة، ليبدأ الظلام يخيم من جديد معلنا عن ابتلاعه الكامل لأرجاء الغرفة التي كانت فارغة عموما سوى من بعض الأثاث، المكتبة، والكنبة، وخزانة مشرعة على مصراعيها تطل منها ملفات وكتب قانونية. وضعت قناع الاهتمام على قسمات وجهها، وأعتمت عينيها وهي تشعل سيجارتها بنفس الولاعة التي اشترتها من المكسيك منذ خمس سنوات، سحبت نفسا عميقا من الغليون، الذي يمكنك أن تجزم بأنه غزا وامتص مداخل كليتيها، أما جيوب أنفها فكأنها شبيهة بالمدخنة

التي تنفث الدخان من مخارجها،غرقت مريم في أفكارها وهي تستذكر أحداث الصباح.

- سيسيل التي راحت تهز رأسها غير مصدقة: كل شيء بدا حين أرسلتني الراهبة الأم كي أصلي في الكنيسة الخلفية، لقد تضرعت لله كي يغفر لي خطاياي، وشكوكي، وبعض الأفكار السلبية التي تراودني، بعدها خرجت وأنا أمشي في البهو كي ألحق في غرفتي... قاطعتها مريم بودي باهتمام باد:

- كم كانت الساعة عندما خرجت من الكنيسة الخلفية؟

- سيسيل وهي تحاول الاستذكار: عندما أتممت الصلوات كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء إلا ربعا.

- مريم بودي وهي تكرر كلامها للتأكيد: إذا قضيت في صلاتك ربع ساعة؟

- سيسيل وهي متيقنة من كلامها: نعم بكل تأكيد.

- مريم بودي: يمكنك الإكمال.

- سيسيل: كما قلت لك من قبل وأنا أمشي في البهو ذاهبة إلى غرفتي لمحت قطتي التي ظلت مختفية لأيام... بدت دهشتها واضحة... رحت أنادي عليها سوزي ها أنت ذا، أين كنت؟ لكن قطتي لم تتوقف وهربت راكضة، وهذا أمر غريب لأنها كانت ما إن تلمحني تجري نحوي،

وهذا الشيء غريب. أكملت بنبرة يشوبها الحزن... تبعتها راكضة من خلفها كي ألحق بها، لكن ما إن توقفت أمام البستان حتى لمحت جسدا مترامیا على الأرض العشبية الخشنة.... أخذت نفسا عميقا وهي تحاول المحافظة على مظهرها المتزن... لمحت ذاك المشهد الفظيع، أطلقت صرخة مدوية، لم أكن أعرف ماذا أفعل، كانت إيميلي ممددة وغارقة في دمائها.. إن الأمر بشع... أخذت تحاوط رأسها بين يديها، وهي تنهار معلنة عن تساقط قطع الثلج من مقلتيها، كأنها تحت ضغوط عظيمة... منحنية إلى الأمام كما ينحني الفارس لتقبيل يد ملكته .. لكن مريم بودي لم تتغاض عن ذاك الشيء الذي برز في أسفل يمين وشاحها، لقد كان نفس الدبوز الذي وجد في مسرح الجريمة الأولى، تكلمت بسرعة قبل أن تتحول أفكارها لشيء من الشك:

- من أين تحصلت على هذا الدبوس الذي ترتدينه في وشاحك؟ هل هو لك؟ قالتها واسودت عيناها غضبا.

- سيسيل بشيء من الدهشة وهي تتلعثم: أنا.... وجدته...

- مريم بودي: هل تدركين الآن بأنك مشتبه به رئيسي ليس لأنك نفس الشخص عثرت على الجثتين، بل أنت ترتدين نفس الدبوز الذي وجدناه في مسرح الجريمة،

وهو دليل جنائي يكفي أن يلف حبل المشنقة على رقبتك... بدت نبرة صوتها أكثر قسوة وجدية، من الأفضل لك أن تتكلمي الآن بكل ما تعرفينه قبل أن تتعقد الأمور أكثر فأكثر وتزداد سوءا مما هي عليه. مر طيف من سراب الغربان فوق رؤوسهم مخلفا خطا متعرجا في السماء، وكأنه باص متنقل، تراقصت الأشجار من حولهم جراء الهواء الخفيف الذي هب كي ينعش الناس، ويأتي لنجدتهم من الحر الذي طفح بجلدهم، بينما أخذت أجسادهم تذبل كالوردة التي حرمت من الماء. أسندت سيسيل بجسدها على كرسيها، وتنهدت بشيء من الخيبة بينما أعادتها ذكرياتها ليوم الجريمة:

- لقد وجدته في مسرح الجريمة بالفعل، عند عثوري على القس ميتا، لمحت شيئا ساقطا في أحد جوانب المحراب شيئا صغيرا يلمع، فاقتربت لأرى ماذا يكون هذا الشيء وظهر بأنه دبوسان، فأخذت واحدا، وتركت الآخر، لكن أؤكد لك بأنني لم أفعل شيئا آخر، بعدها ذهبت مسرعة لأخبر الراهبة الأم عن ماجرى، لم أقتله لم أفعل فقد كان طيبا جدا معي، ليس لدي أي مصلحة من قتله

- مريم بودي بحذر: وهل لدى أي شخص مصلحة في موته؟

- سيسيل: لا أعلم، الجميع يحبونه، ولا أعرف شيئا عن من قد يكن له أي عداء أو كراهية.

- مريم بودي: لماذا أخذت دبوسا واحدا وتركت الآخر؟ كان بإمكانك أن تؤخذي الاثنين معا، ولن يكتشف أي أحد الأمر.

- سيسيل بابتسامة حزينة: حسنا، في حقيقة الأمر في هولندا هناك مقولة تقول "إذا شاهدت دبوسا في الأرض ولم تلتقطه فسوف يلازمك سوء الحظ طوال يومك، أما إن التقطته فسيلازمك الحظ الحسن طوال يومك"، وأنا أؤمن كثيرا بهذه الأشياء التي يبعث بها الله كإنذار لنا، لكن أرجوك أن لا تقولي أي شيء للراهبة الأم، لأنها سوف تطردني من الدير.

- مريم بودي باستغراب جلي: ولماذا ستطردك؟ هل لأنك عبثت بدليل الجريمة؟

- سيسيل مصعوقة: يا إلهي لا أعرف لماذا فعلت ذلك، أنا أعلم بأن هذا شيء مخالف للقانون، لكن المرء تحكمه عادات تربى عليها، ويصعب عليه التخلص منها، ربما سيكون هذا سببا كافيا لطردي من الدير، لكن هناك سبب آخر، فالليلة الماضية على العشاء قد حذرتني من استعمال الخرافات والأساطير التي تعبر عن التشاؤم، لهذا

طلبت مني أن أذهب لأقدم صلواتي، وأتضرع لطلب الصفح من الله.

- مريم بودي التي تشكلت عيناها كالسمكة، وهي تضيق عليها من كلتا الجوانب: والآن قولي لي، من تمتلك هذه الدبابيس؟

- سيسيل وهي تحاول ترك انطباع جيد: جميع الأخوات ترتدي مثل هذه الدبابيس، سيكون من الصعب معرفة لمن تعود هذه الدبابيس بالضبط.

- مريم بودي: لنقل أن واحدة قد ضاعت دبابيسها، هل ستتمكن من أخذ دبابيس أخرى من خزانة أي راهبة أخرى؟

- سيسيل: كل راهبة معرضة لفقدان دبابيسها بدون أن تلاحظ ذلك، أثناء قيامها بالأعمال التنظيفية، أو أشياء أخرى، وعند حدوث ذلك تستطيع الحصول على دبابيس جديدة، ولكن بلون مختلف عن الذي كانت تحوزه من قبل.

بعد الانتهاء من استجواب سيسيل، الراهبة التي عثرت على جثة إيميلي، وذلك بعد التأكيد لها مرارا وتكرارا بأنها لن تخبر الراهبة الأم عما حدث، جاء دور مديرة الدير والراهبة المسؤولة اللتان لم تكفا عن التكلم في نفس الأسطوانة القديمة عن الحفاظ على منمعة الدير،

وسيكون من الفضيحة لو علم الناس عما يحدث داخل الدير الذي اكتسب سمعة جيدة واحترام ناس الحي جميعا على مر السنوات، لكن الناس بدأت في نقل الأخبار عما يحدث، خصوصا أن هذه ثاني جريمة تحدث، راحت مريم بودي تحدثهم بأن الأمور خرجت عن السيطرة، لكن طمئنتهم بأن الدير والكاتدرائية سيشهدان شهرة في الأيام القادمة لعدد الزوار الفضوليين، الذين يسيطر عليهم الفضول لمعرفة المكان التاريخي الذي شهد جرائم قتل، وبهذا ستزدهر الكاتدرائية من جديد... لكن ذلك لم يخفف عنهم، بل هب الخوف والرعب في أعينهم.

أما بخصوص بقية الراهبات، فلم تستطع المحققة قطف شيء من كلامهن وكانهن كن يلبسن الحقيقة تحت نسيج ثيابهن البيضاء التي كانت تصيح كصيحة ديك، قد ذكرن ما حدث من شجار وتقاذف الاتهامات بين إيميلي وهيلين على طاولة العشاء مساء أمس، ورحن يتكلمن عن موضوع النار وكل تنسبه في كلامها ، فالمحققة تعرف بأنه ليس هناك دخان بلا نار. كان يجري الوقت كعجلة الدراجة، وكان على مريم بودي أن تحل هذه القضية بسرعة، فالأيام مضت كسرعة الضوء، وجلسة الاستماع ستقام بكل حال هذا الأسبوع، ولن يأبه القضاة إلى عدم وجود أدلة كافية، لأنهم سرعان ما سيؤجلونها مجددا

وهذا لن يكون في صالح القضية. مريم بودي علمت بأن هذا الدير يشكل مسرحا لعمليات مشينة في الخفاء، وبالتواطؤ مع أصحاب الدير، خصوصا بعد تقرير الطبيب الشرعي الذي يحاكي جثة 'يميلي التي تم التأكد بأنها ماتت مقتولة بسكين حادة عدة مرات، بنفس الوحشية من سابقتها، ولكن كيف ستثبت ذلك، وهي لم تحز على الوثائق الكافية لإدانتهن؟.

الفونسو

في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي...

سقطت مريم بودي في أسر ذكريات الليلة الماضية، ولم تنتبه لنفسها حتى كيف قذفت إلى نوم عميق ذي كوابيس مزعجة مجددا كانت الأحلام لا تفارقها كظلها، تجري وراءها كما تجري السحب وراء بعضها البعض متسابقة من تسبق الاخرى ،أو تتكتل في غيمة كبيرة تسبح فوق رؤوس البشر، انتبهت مريم لنفسها بعد أن أفاقت من سباتها، اتجهت أنظارها ناحية الجدار الرمادي المقابل، لتستفسر عن الوقت الذي كان ينذر بالساعة الثامنة إلا عشرا، تأففت لحالها وذهبت لتلمح نفسها في المرآة قالت وهي تصر أسنانها: رائع أصبحت أنام في المكتب... كانت عيناها تطالعان المرآة ونظراتها كالخنجر، لم تعجبها هيئتها راحت تصلح ما يمكن إصلاحه، صبت كوب القهوة السوداء التي تتشارك معها عادة سيجارة، وكرواسون وجريدة. راحت تتصفح جريدة الخبر المعروفة في الجزائر، وهي ترتشف قهوتها، بتر عنها لحظتها صوت طرقات على الباب، راحت تستذكر مارشملو الذي كان يقوم بمهمة فتح الباب، والعديد من المهام الأخرى وهو

الآن في رحلة، هي التي أرسلته لها، ولم تسمع عنه بعد، يا ترى ما الذي أخره من الاتصال بها؟.

فتحت الباب لتلمح شرطيا بزيه الرسمي، وهو يمسك بظرف متوسط، وبملف آخر ويقول بابتسامة رقيقة:

- صباح الخير آنسة بودي، أنا رئيس فرقة التحريات التي عينني مساعدك لحراسة المكان الممتد في غابة بوشاوي لقد طلب مني إحضار التقرير النهائي بنفسي لك، نظرا لسرية القضية وتحليل البصمات، للدليل الذي جاءنا البارحة، وها أنذا أمامك وتحت تصرفك.

- مريم بودي مبادلتة الابتسامة: شكرا أنا ممتنة لك، أعتقد بأن هذا وهي تشير لما بين يديه يفي بالغرض، يمكنك الانصراف.

أخذت منه الظرف والملف الأصفر، ودلفت لحجرة مكتبها بعد غلق الباب بإحكام. لدى انصراف البوليس، كان مكتوبا فوق الظرف بالخط الكبير الأحمر الذي يلفت الأنظار: سري جدا، تناولت سكينا صغيرة لتفتح الظرف، وهي تهمس بحماس: لنرى ما يمكننا التوصل إليه كمعلومات في البداية، لتتفاجأ لقد كانت صورا لجماعة جالسة في مقاعد وسط الغابة العظيمة التي طغت علها أشجار ضخمة، كانت تحاوط المكان كالحصين كانت تقلب الصور المتتالية باقتضاب إلى أن لفت شيء انتباهها لقد

كان هو ذاك الرجل الغامض الذي شاهدته في الكاتدرائية والذي راح يغمر رأسها بمعلومات عن الكاتدرائية، أيعقل أن يكون له يد في الأمر؟ نعم كل شيء معقول، أخذت الصور الأخيرة، والتي كان هو يتوسط الجماعة فيها، يبدو وجهه بوضوح، ما عليها سوى التأكد الآن، سحبت صورته وأدخلتها في الماسح الضوئي لجهاز الكومبيوتر، وبعد أن أصبحت الصورة داخل الجهاز قامت بمحاولة البحث عن صاحبها في مسرح الانترنت الذي يعج بالشخصيات، وبعد الترقب للحظات ظهرت له عدة صور أخرى في مناسبات مختلفة، راحت مريم بودي تلتقط جميع المعلومات التي أمكنها التحصل عليها، إلى أن لمحت اسمه أخيرا: الفونسودي لا باريرا.. رجل أعمال إيطالي الجنسية صاحب الثلاثين عاما، وذو منشآت وشركات متعددة، لها عدة فروع في مختلف دول العالم، منها الصناعية والتجارية، خصوصا شركة الحديد الصلب. صاحب شركات في البورصة... ماذا كان يفعل رجل أعمال في ذلك الوقت، وفي يوم ارتكاب الجريمة، هذا ما كان ينخر عقل مريم بودي، لقد تيقنت أن له دخلا في الأمر بشكل ما أو بآخر، لكان عليها التأكد من سجله الجنائي أولا.

نهضت من الأريكة الجلدية العتيقة، لتصدر صوتا مزعجا طالبة رقما ما، لقد كانت صديقة طفولتها خديجة

التي تعمل في مركز شرطة العاصمة، والمسؤولة عن السجلات الجنائية لقد كانت هي طريقها للحل في هذه اللحظة... وأخيرا أجابت بعد انتظار طويل:

- ألو من؟ مريم، أوه ما هذه المناسبة التي قررت فيها تذكري والاتصال بي يا ناكرة الجميل؟ لقد كنت أنا من ساعدك في القضية الفائتة، ولم تتصلي بعدها أبدا، أهكذا تكلل الصداقة؟ قاطعتها مريم بودي قبل أن تكمل وتأخذ نص ساعة وهي تتكلم بدون انتظار:

- نعم أنا آسفة أعدك أن نذهب لشرب قهوة، أو تناول العشاء في مطعمك المفضل في المرة القادمة، لكن أنا أحتاج للحصول على معلومة بخصوص شخص يدعى الفونس ودي لا باريرا.

- خديجة بملل: أوه حسنا، ولكن لن تكون مجانية سيتعين عليك أخذي في موعد للعشاء... لم تتوقف عن الثرثرة سوى حين خرجت نتائج البحث، خديجة بمكر: انتظري، أوه يبدو أن ذوقك في الرجال لن يتغير، فدائما تقعين في النوع السيئ... قلبت مريم بودي عينيها بعدم تصديق مما تسمعه:

- أنا لست أعد أحدا.. فقط، قولي ماذا وجدت؟

- خديجة باستهزاء: حسنا، لا تغضبي أنا فقط أمزح.. لا لست أمزح.. هذا الرجل فعلا سيئ، رجل أعمال

وصاحب شركات في البورصة، إنه خريج سجون، قالتها بنغمة الاستهزاء، حسب سجله الجنائي، فقد زار السجن عدة مرات في تهم متعددة ومتشابكة، كلها تصب في النصب والاحتيال والتهريب، وسرقة براءات الاختراع، لكن المثير للدهشة في هذا الموضوع أنه دائما ما يخرج ببراءة... قاطعتها مريم بودي مصعوقة:

- الفساد القضائي يغمر المعمورة كالتسونامي الذي يحمل معه في طريقه كل شريف، ويلوي عنق الحقيقة للذين يتمردون عليه، كالحية التي تغرز سمها في ضحيتها المحملة بين عينيها كل اللحظات الاخيرة من حياتها، كل أحلامها وطموحاتها، وأهدافها التي لم تتحقق بعد، يا له من إحباط... قالتها بشيء من الخيبة.. هل نحن أمام أحد ركائز المافيا الإيطالية في شمال إفريقيا، أم مجرد رجل نصاب يريد المزيد من المال بسرعة؟

- خديجة بعد صمت طويل: هذا ما عليك اكتشافه عزيزتي.

- مريم بودي: بالطبع. أغلقت سماعة الهاتف التي أصبحت ثقيلة على يديها، وهي تشرد للحظات، ثم تتوجه لمكتبها لتفتح آخر ملف على المكتب الذي كان ينتظر كي يفتح، لقد كان تحليل حمض النووي للصليب، انفكت تقرأ بعينيها الملف أمامها، كأنها تأكله بنهم حتى تلألأت

عينها وظهرت ابتسامة غامضة مرضية، لتترك كل شيء في يدها وتأخذ جاكيتها الجلدي، وتذهب في وجهتها الجديدة، لقد كان هناك شخص ينتظرها في موعد.

البواب الذي تحول إلى مليونير

سحبت من سيارتها بهدوء في آخر الشارع، لتمشي بضعة خطوات في رصيف طويل غير منته في ذلك الحي الراقي المدعو ب "بحي الورود"، في مدينة حيدرة الفارهة، فقد ارتأت أن تصف سيارتها بعيدا عن الأنظار كي لا تجذب الشك إن كانت مراقبة أو لا، أخرجت نظارتها السوداء من جيب سترتها كي تستطيع التحديق براحتها، كل شيء يدعو للغرابة في هذه القضية راهبات مشتبه بهن، رجالات مافيا، وبواب يسكن في حي راق.. ابتسمت مستهزئة، وأنا التي ظننت أنني رأيت كل شيء في هذه الحياة. سارت في الهواء رائحة البن على شكل خط أغمضت مريم بودي عينيها، وهي تستنشق تلك الرائحة الزكية التي تكون سببا بإعطائك حقنة الكافيين لبدء يومك بنشاط، كالحصان العربي الأصيل الذي يتصف بالذكاء، والفطنة والذاكرة الحادة، كان أريج البن يخطو بخطوات متمايلة كالفتاة المغرورة التي تريد لفت نظر حبيبها، لتترك في كل خطوة عبق عطرها، كأنها كشك قهوة متنقل في الأرجاء، لقد كان شذى القهوة يعبق المكان المقابل لها عند آخر المنعطاف، التالي من الرصيف المقابل الذي أعلن عنه تحت اسم "كافيتريا الأميرة"، كان المحل

عبارة عن مكان تقدم فيه كل أنواع القهوة، من السوداء كما تحبها مريم إلى الكابوشينا، ويقدم أيضا وجبات الفطور الصباحية وأكلات خفيفة جزائرية المنشأ، محل أنيق وجميل، تحاوطه باقات الورود كالجدار من كل جهاته، كأنه محل عطر، رائحة البن البنية المختلطة برائحة الزهور المتنوعة، كالتوليب والجاردينيا والنرجس، وعناقيد الليليك البنفسجي ساقطة على الجدار كالأقراط المتدلية، وتقابلها زهور الياسمين ذات الرائحة العطرية الرائعة.والقوية، كأنك في عالم الخيال، أو العشاق، إنه محل جد جميل، ربما ستود اصطحاب صديقتها خديجة إليه، لقد كانت مريم بودي من أشد معجبي الورود راحت تحصي بعينيها جميع الأنواع الموجودة في ذاك المحل الذي أغواها بمقدمته الوردية، التفت بها ذاكرتها نحو طفولتها الجميلة، أين كانت تساعد عمها البستاني في نقل وتجهيز وغرس بذور الورود لقد كان يعود له جل الفضل بمعرفتها للأنواع المتعددة للأزهار ظهرت ابتسامة طفيفة على وجهها لتذكرها شيئا من طفولتها لقد عاشت طفولة سعيدة بحق، تلك الابتسامة تلاشت ما إن لمحت أمامها لائحة إشهارية معلقة، كانت تحتوي على عبارة "النار تصقل الذهب" حافظت مريم بودي على تلك الوضعية الصامتة أمام اللوحة الإشهارية وأخرجت مفكرتها، لتكتب

شيئا ما وتكمل سيرها، بضع خطوات فقط لتجد نفسها أمام بناية أو بالأحرى عمارة جميلة وأنيقة تحكي عن رفاهية أهلها، راحت تقرأ الأسامي إلى أن وجدت ضالتها، لتضغط على زر معين لتجيب صاحبته من الجهة الأخرى بعد أن لمحتها في الكاميرا، لتجيب مريم بودي بتحفظ:

- هذه أنا سيدة يعقوب، مريم بودي، المحققة الخاصة. لتجيب الأخرى:

- نعم تفضلي، لقد كنت بانتظارك.

لم تستطع مريم بودي إلا أن تنظر بانبهار ورضا إلى البناية المميزة، لقد كانت عمارة ذات ملكية خاصة، يبدو بأن تكاليف العيش في هكذا أماكن باهضة، تنبعث روائح المنظفات الزكية في الأرجاء الأرضية، كانت رخامية تلمع أما الجدران فكانت ملونة بالألوان الهادئة التي تبعث على الراحة النفسية للشخص المار بينها، لن يعيش في مثل هذه البنايات سوى أصحاب الدخل المرتفع، كرجال الأعمال والأطباء، والمهندسين وما يشابههم. الكاميرات كانت تشهد على كل صغيرة وكبيرة في ذلك المكان كالمتربص بك الذي ينتظر أي زلة أو هفوة ليكون شاهدا على نهايتك، انزلقت بودي داخل إحدى المصاعد الذهبية اللون فقد كانا اثنين، اختارت المصعد اليمين المقابل للدرج الرخامي المصقول بحدة السيف لترصد تفاصيله

المتقنة، لقد كانت امرأة بحق الإله والنساء تعيش من أجل التفاصيل، ستجدها تقف لساعات طويلة تتأمل لوحة زيتية لفنان غير معروف، أو تراها تحدق في الوجوه العابرة في طريقها، لقراءة شخصية صاحبها، نبرات الصوت وكيفية خروج رنة الحرف من شفاه صاحبها أو ماذا يشتري لمنزله من بقالة، نوع الورود التي تزين شرفات المنازل، الأيادي الناعمة من المجهدة، مزاج الحاد من الطبع الهادئ، الرجل الخائن من الوفي... ببساطة كن عكس. الرجال الذين لا يأبهون للدقائق الصغيرة من الوقت الضائع سوى في كرة القدم... كان أمامها خياران: الدرج أم المصعد لكنها اختارت الطريقة السهلة والآمنة، بالطبع وهي المصعد، وما هي إلا هنيهة من الدقات على الباب الخشبي الفخم، وفتح الباب لتظهر منه سيدة جميلة الملامح بفستان منزلي قصير وطفل صغير يحاول تسلق ساقها، لتنحني له رافعة إياه من الأرض ليجاور كتفها الأيسر... صباح الخيرقالتها مريم بودي بتبسم... لترد المرأة الأخرى: صباح النور، يمكنك التفضل. دخلت مريم بودي الشقة التي كانت كما صورتها في ألبوم ذاكرتها.. نظيفة وراقية، لم تكن أبدا عكس ما توقعته.. الحجر الرخامي يمتد حتى داخل البيت الذي كانت تحجبه بعض الزرابي التقليدية الصغيرة، أما الثرايات فكانت كل شيء..

كأنك في قصر الملكة إليزابيت، أو أحد قصور الدوقات الفرنسيات، قد كانت الثريات كبيرة الحجم، تتفرع كأجنحة الحمام، حاملة في أعرافها قناديل زجاجية تشبه الألماس في لمعانه، أو تعادله، انتبهت المرأة لسرحان المحققة في الديكور لتتكلم بعد لحظات من الصمت الطويل، التي تخللتها بعض الكلمات الغير مفهومة من الطفل:

- أرجو منك الاستراحة في الصالون، ريثما أحضر شيئا لنشربه .

ما المشروب الذي تفضلينه؟

- مريم بودي بامتنان: في هذا الوقت من النهار أفضل شرب الشاي.

- حسنا، دقائق وسيكون حاضرا. راحت مريم بودي تطالها وهي ذاهبة بخطوات سليمة

تضرب بخفها الأرض الرخامية لتترك وراءها صدى كقرع الطبول، ارتد نظرها ناحية الديكور الدافئ الذي أسر بالغرفة الشاسعة التي تشبه ملعب كرة سلة في طوله بالتمام، سقف الغرفة كان مزينا بنقشات من الورود، وأوراق الشجر الجبسية الناعمة، ولإتمام مشهد الديكور الداخلي، قاموا بملء فراغات الزوايا الجانبية للجدران ببعض النباتات، ما ساعد على إضفاء الطابع البوهيمي

على المشهد، تتوسط الصالون طاولة دائرية الشكل، كلاسيكية مزينة بوعاء كريستالي، الذي يشبه لحد بعيد الثرايا، تنبثق منه أزهار اللافندر البنفسجية، الأريكة كانت مكسوة بالمخمل، وببعض الحرير على الجوانب لإضفاء لمسة الرفاهية، والترف على إحساس الجالس فوقها، تتوسط الجدار في المنتصف المقابل لوحة زيتية طويلة قيمة لتسليط الأنظار عليها، وبعض الصور التذكارية الموضوعة فوق رف المدفئة للذكرى.

وقفت مريم من مكانها، وهي تحدق في الصور المصفوفة كجدار ذكريات لا يمحى من الزمن الغابر، رجل في الأربعينات يتخلل شعره الشيب كعنوان من الحياة الماضية التي عاشها، عينان جاحظتان، ووجه مدور يغرق في السمرة، كان موجودا في جميع الصور مع طفلين يكبران من صورة لأخرى، في حالة نمو غير متوقفة، ذلك هو الزمن الذي لايمكنك توقيفه، النضوج تلك الرحلة التي تأخذك من اللبنة الأولى لحياتك التي كانت تسودها التخيلات الحالمة إلى تجارب وتحديات، ومسؤوليات لتخرج بنتائج تصقل شخصيتك، كما تصقل النار المعدن، الشخص الناضج محكم السيطرة على حياته، فهي لا تنفلت منه بسبب الأقدار أو المخاوف من الفشل، لكن ذاك الذي يتوسط الصور أمامها انحلت عليه الطيلة،

ولم يستطع مقاومة العواصف التي كانت تحمل معها العقول التي لم يكتمل نضجها.

عادت لمكانها بسرعة خفيفة عندما سمعت رنة خطوات قادمة، وقد لقيت تأكيدها عندما لمحت تلك المرأة قادمة بخطوات متعرجة ماسكة بين يديها صينية قهوة، تخلت عن ذلك الطفل الذي كان يتسلقها منذ لحظات، ربما تركته في غرفة الألعاب وعوضته بالصينية التي اتخذت شكلا مستديرا وكانت خشبية متصلة بمقبضين، عليها إبريق شاي وكوبان، بعد أن فرغت من صب الشاي، انغمست في كوبها، لكن مريم بودي لم ترض بهذا الشيء، ظلت تتفحصها مطولا، امرأة في عز صباها أصبحت أرملة بين ليلة وضحاها، تكتحل بالسواد في عينيها، وتلتحف برداء أسود يرمز إلى اعتناقها العدة، ظهر وميض شفقة على وجه مريم وهي تحدق بها، كان الصمت قد اتخذ وقتا طويلا، لتتكلم دون سابق إنذار كي تلطف الجو قليلا، ولم تكن تعلم لمَ قالت هذا الشيء فقد كان هذا أول ما خطر على بالها:

- هل انتهيت من أيام العدة؟

- أجابت المرأة هازة رأسها، وكأنها تحاول طرد الصور والفيديوهات التي تجمعت في راسها، مستذكرة موت زوجها: لقد بقي لي شهر.

راح ضوء الشمس يتسلل من النافذة الكبيرة، ويتألق فوق أباريق الشاي المقابلة لبعضها البعض، وكأنها تؤدي رقصة صامتة. انتهزت مريم بودي الفرصة لتكمل بابتسامة مطمئنة:

- أريد أولا أن أقدم لك أخلص التعازي سيدتي، وأريد أيضا أن أطمئنك، بأني سأبذل كل ما باستطاعتي لتحقيق العدالة لك ولزوجك المرحوم، ولعائلتك. ظهر طيف غرغة دموع في عيني المرأة المقابلة، ولكنها حاولت كبح جماح نفسها عن البكاء، والتمسك بتلك الكلمات التي قالتها المحققة كخط أمل رفيع لقضيتها، تمالكت نفسها كأنها تروضها على تقبل فكرة ذهاب زوجها بلا عودة، هذه المرة مثلما يروض الفارس فرسه العنيد، تاركا لها مسؤولية طفلين، أو حياتين على الأقل كي تعيش لأجلهم:

- آمل فعلا بأن تلقى العدالة طريقها سلسا بدون منعرجات، أو قطاع طريق، لأنه الآن لدي يتيمان يجب أن أحافظ على حياتي لأجلهما. كانت كلماتها قوية جدا على مسامح المحققة التي عبست، وكأنها تحاول أن توصل لها بفكرة أن العدالة ليست عادلة:

- ما الذي يدفعك لقول هذا الشيئ؟ نعرف بأن العدالة في كل مكان تشهد نوعا من الفساد، لكنني أؤكد

لك بأن العدل ماض في محاربة الفساد الذي ينخرها بدون توقف.لا أريد أن أتخذ دور ذلك البائع الذي يعد العالم بكل شيء، ثم يفشل في تسليم أي شيء، لكنني سأبذل كل مسعاي، ولكي أزيح عنك قلقلك، أنا محققة خاصة، لن تستطيع العدالة أن تتدخل في عملي حتى أسمح أنا بذلك، ما رأيك الآن، هل تثقين بي؟. أخذت ابتسامة جامدة تشق طريقها للظهور على وجه المرأة الحزين لتتكلم بكل أمان:

- أنا أثق بك سيدة بودي، وأعرف بأنك أشهر محققة في الجزائر، سمعتك الطيبة تسبقك، ولكنني أحتاج لضمانات. أجابتها مريم بودي وهي تعبس من جديد:

- ضمانات؟ لمَ؟ هل تلقيت تهديدا من قبل؟ وماذا تعرفين لتحتاجي ضمانات؟ لم يسمع شيء في الغرفة عدا عن تصاعد أنفاسهما وهبوطها مثل أرجوحة منزلية مصنوعة من الحبال تأخذ طفلا صغيرا في رحلة الصعود والهبوط، كأنها المغامرة الأخيرة في حياته. ساد جو التوتر لأول مرة في هذه المحادثة لتقول المرأة بكل ثقة:

- إن زوجي لم يمت ميتة طبيعية، بل مات مقتولا في غابة، أنا واثقة من أن الجاني سيكون اتجاهه هذه المرة نحونا نحن عائلته، فقد يتراءى في ذهنه المريض بأنني

قد أعرف شيئا ما، ويحاول التخلص مني، وأنا لا يمكنني السماح بحدوث هذا، وأنا بحوزتي أطفال. نوعية الصمت قد تغيرت هذه المرة، مريم بودي العالمة بالنفوس قد أحكمت على شخصية هذه المرة الذكية من خلال كلامها، حطت المحققة إبريق شايها الذي كان يجلس مثل ملك في حضن كفيها على الطاولة، دون إصدار أي صوت كالقط، وتحدثت لتتردد أصداء الكلمات كالطبل في مسامع المرأة الجالسة قبالتها:

- .إذا كان هذا ما يؤرقك فلك ذلك، سأطلب من سيارة الشرطة الحضور لمحل إقامتك وحراستك ليلا ونهارا، حرصا على سلامتك، وسلامة عائلتك، حتى نعالج هذه القضية همهمت المرأة برضى، لتكمل المحققة... لكن لنذهب لصلب الموضوع، بمعالجة للكثير من القضايا، قد مر علي العديد من القصص كحكاية زوجك، أين البواب يتجه مصيره للقتل، أما الذي لم يمر علي من قبل هو البواب الميسور، أو دعيني أوضحها لك بشكل أفضل، ما الذي يجعل بوابا يعيش في حي مترف داخل بناية راقية، وشقة فخمة؟ كم كان يجني زوجك سيدتي؟ عاد جو التوتر ليسود من جديد في الأرجاء فراحا يحدقان لبعضهما البعض مثل عاشقين، دون أن يرمشا

ولو لثانية، لتنسحب عينا المرأة من المواجهة محاولة الهروب لكن تقرر أخيرا التكلم:

- أنا أعلم بأنك ستطرحين هذا السؤال علي عاجلا، وكم تمنيت أن أحيط منه بعلم، ولكن ببساطة لا أعلم. زوجي كان شخصا كتوما للغاية، لم يكن يتحدث عن عمله أبدا، حتى في محاولاتي للتكلم عنه، كان يختم الموضوع قبل حتى أن أبدأه إما بالصمت أو بإجابته المعهودة بالجملة المشهورة"الصمت زين، والسكوت سلامة"، لكن في الأخير انصرفت للتفكير بأنه قد يخدم في عمل ثان غير عمله كبواب. أجابتها مريم بودي بسرعة لتخرج مفكرتها مدونة شيئا ما:

- عمل ثان؟ ألم تستطيعي أن تعرفي أي عمل كان؟

- المرأة بأسف واضح: لا، لم أتمكن من المعرفة، كما قلت لك من قبل كان شخصا كتوما للغاية، لكن أظن بأن عمله الثاني هو من كان يدر عليه أموالا كثيرة، لا أريد أن يذهب ذهني بعيدا، وأن أفكر بأن هذا العمل بالذات كان سيئا، أو الأسوء، كان سببا في موته.

- مريم بودي: ربما هذا ما عليك التفكير به حقا، تفضلي بطاقتي إن تذكرت أي شيء يمكنك الاتصال بي في

أي وقت سارعت المرأة لأخذ البطاقة من يديها بنشاط مجيبة:

- شكرا سأفعل بكل تأكيد، ردت عليها بلياقة وتكلف. بعد أن شارف اللقاء على النهاية، قررت مريم بودي أن تختمه بعد أن شربت إبريق الشاي بنفس واحد، وهمت ناهضة دون سابق إنذار.

مشت برقة وهدوء، لكنها التفتت للمرة الأخيرة للمرأة التي أصبحت وراءها أمام الباب، لتتكلم المحققة تاركة المرأة تحدق فيها بتلك التحديقة التي لا ترمض أبدا، وعقلها الذي يدور بسرعة كأنها أصيبت بعاصفة ثلجية:

- كنت أود أن أزف لك أنا الخبر السار، بالكشف على الحسابات البنكية لزوجك المتوفي، أحب أن أبشرك بأنك أصبحت أرملة مليونير... زوجك البواب تحول إلى مليونير.

شدت لحظة اليأس من عزيمتي

طالعت مريم بودي عيني مارشملو اللتين تلمعان بطريقة غريبة

وكأنه اكتشف اكتشافا عظيما سيغير تاريخ البشرية للأبد علاج السرطان الذي يقتنص حياة الملايين كل عام والحل لغلق ثقب الأوزون الذي يهدد الإنسانية من الزوال، نفضت رماد سيجارتها على وعاء السجائر المملوء بأعقاب السجائر المتهالك نغص صمتهم طير جلس مقابلا لهم على الجهة الخارجية للنافذة وكأنه يتلصص عليهم ليكتشف بعض الأسرار التفتت مريم بودي له وهي تبادل العصفور الصغير النظرات مثل أم ورضيعها حديث الولادة، لقد ذكرها بعصفورها مرجان الذي توفى بعد نزلة برد هذا الشتاء، بعد أن قضت اليوم بأكمله وهي تمارس طقوس الحزن عليه من شقاء وذرف للدموع، اتخذت قرارا كبيرا بعده على أنها لن تأتي بأي حيوان آخر في منزلها من جديد، فقد كان هاجسها هو التعلق، لقد تعلقت بعصفورها الصغير كثيرا، وكان حزنها عليه بقدر تعلقها به، لقد كان قلبها هشا كالفقاعات التي تصدرها الأمواج عند اصطدامها مع بعضها البعض، أدارت وجهها عنه بسرعة بعدما بدأت تلك الذكرى الأليمة بنسج

خيوطها في عقلها، انتفضت بكياسة بعدما لم تجد مارشملو في مكانه، ذهبت عيناها تجوب المكان لتلمحه على بضع ياردات منها وهو مشغول بصب القهوة لنفسه، مرت لحظات عشوائية ليركن مارشملو إلى مكانه مقابل لها متخذا نفس الوضعية السابقة في الجلوس، ليتكلم أخيرا مزحزحا ستار الصمت بينهما:

- لقد كان الاكتشاف الذي حزته في فرنسا عظيما، لكن لا أعرف لمَ لم يرقك الأمر، أنا أعرف بأنها قضية متشابكة في مجرياتها، لكنها آخذة في الطريق الصحيح، كل يوم نكتشف معلومة جديدة ودليلا جديدا، هذا يصب في الجهة الحسنة ويصب في صالحنا بكل تأكيد. انكمشت مريم بودي حول نفسها كالإسفنجة التي تنفض من الماء الذي يتخللها، وهي تشعر بأن بشرتها تشهد نوعا من البرودة المفاجئة لتنطق بإجابة أدهشت مارشملو:

- لا أعرف حقيقة ما بي، هل هي الهرمونات التي تجرب حظها معي، أم أن لحظة اليأس قد شدت من عزيمتي، كل ما في الأمر أنني أريد أن أنتهي من هذه القضية بأسرع وقت ممكن، هناك حيوات الكثير من الناس في خطر، من بينها حياة طفلين كلها على عاتقي ولا أريد أن يخيب ظن أي أحد بي. بحذر شديد قرر أن يخرج

كلماته كصياد يترقب فريسته محاولا عدم إخافتها للهروب، أو الأسوء لانقضاضها عليه:

- عزيزتي أنا كلي ثقة بك، أنت امرأة حديدية بالرغم من كل ما يمر عليك إلا أنك تبذلين جهدا كبيرا لمساعدة الناس وإحلال نظام العدالة والإنصاف، وأعظم شيء بنظري يقوم به الانسان هو أن يكون شخصا صالحا في هذه الحياة التي يسودها الفاسدون في كل ركن من أركانه، يجب أن تكوني فخورة بنفسك، وبما تقدمينه من أعمال وحلول للمحتاجين الذي يصفون على درجك كل صباح، لأنهم يثقون بأنك أنت الشخص المناسب لهذه المهمة الصعبة، والتي يفشل فيها أغلب الناس لقد كانت تلك المرة الأولى التي يتكلم معها مارشملو على هذا النحو من الطريقة التي رأتها غريبة بعض الشيء لكنها كانت ناجعة بكل المقاييس، لأن كلماته كانت كالضماد على جرحها قررت التكلم بصراحة هذه المرة راسمة شيئا ما على الورقة :

- الدير، الراهبات المشتبه بهن، رجل الأعمال سيئ السمعة الكاهن المقتول، البواب المليونير، إيميلي المسكينة، الدلائل الكاتدرائية، الرمال، الدبابيس، بالإضافة إلى المعلومات التي تحصل عليها مارشملو واللافتة الإشهارية، برأيك مارشملو ما هو الشيء الذي

يجمع بينهم... أخذ مارشملو بعض الوقت في التفكير ليتكلم بتيقظ فائق:

- أعتقد بأنها الكاتدرائية.. كل شيء يدور حولها، وفيها، هناك لغز فيها، أو سبب يجعل الجميع حولها معرضين للخطر ويجعل آخرين أثرياء. كانت مريم بودي تطالع الورقة التي أمامها، وتستمع لكلام مارشملو من جهة أخرى منهمكة فيها مثل صبي يتولى أول مهمة في حياته ليرضي والديه، لكنها توقفت لتشهد أعظم ابتسامة على وجهها، وقد عرف مارشملو معناها لتهب واقفة كجذع شجرة، لتتكلم بحماس ودهشة:

- لقد كان كل شيء أمام عيني، لكن لم تشأ عيني أن تصدق الدليل الذي بين يدي لأني كنت أظنه مستحيلا، لكن ليس كل شيء مستحيلا، كل شيء يستطيع الحدوث.. بسرعة البرق حملت الملفات التي بين يديها، ولم تنس مفاتيح السيارة والتفتت إلى مارشملو الذي قد فهم ماذا تقوم به، لتتكلم بلهفة غير مسبوقة:

- هذا ما كنت بانتظاره، أريد أن تبعث بفرقة خاصة في الساعة الثانية إلا ربعا ليلا، تحاوط الكاتدرائية والدير، ولكن بسرية تامة .لا أريد أن ينكشف أي شيء.

- أما أنا فسأذهب لزيارة خاصة لمكان مميز، ثم أعرج للدير. قالتها وهي تلتقط حقيبتها معلنة عن خروجها. لكن

مارشملو قاطعها لاحقا بها بسرعة قبل أن تبتعد عن ناظريه:

- لا يمكنك فقط الدخول إلى الدير هكذا فقط، يجب عليك على الأقل حيازة مذكرة تفتيش. قالتها وصوتها يذبل كورقة شجرة غمرها المطر مع كل كلمة حتى اختفت كلية:

- الحصول على مذكرة تفتيش سيستغرق أياما على الأقل هذه المرة سأعتمد على نفسي، وسأقوم بتمشيط المكان وحدي...

لقد علم مارشملو بأنها ستقوم بفعل كل شيء يطرأ على بالها، حتى لو كان ذلك خطرا على حياتها، ولا يمكن إيقافها.

تجلي الحقائق

مع تقدم المساء أكثر فأكثر... ذلك المكان الذي تكلمت عنه مريم بودي، لم يكن سوى سفارة الفاتيكان المجاورة للكاتدرائية في طريق طويل معزول عن الناس، خصوصا في هذا المساء المنعش الذي يشهد موجة من الهدوء الذي يضرب هواء الليل الهادئ البارد وجه المحققة، والذي تسلل خلسة من النافذة المفتوحة في آخر رواق الممر في السفارة، ساعدتها تلك الرياح على التفطن واليقظة، ودبت فيها بعض النشاط الذي خف منذ وقت مضى وها هي الآن تقدم جميع الملفات التي كانت بحوزتها للقنصل الذي اغتمرت ملامح الدهشة والخذلان وجهه المجعد. لكنه عمد إلى وضع غلاف التهذيب على وجهه الذي قد بدأ يشتعل غضبا أكثر فأكثر بعد كل ملف يقلبه، حافظ على هذه الوضعية لعشر دقائق كاملة، لم يتمكن من التصديق أولا، وعكف على مقاومة الشك لكنه في الأخير أخذ يحدق كليا، فارغا فاهه وتناول التحملق المطول في المحققة، بدا الزمن كأنه تعطل لدقائق لم تنته، كسر ذلك الصمت الكئيب صوت عقارب الساعة، التي ترقص مع الوقت على إيقاع يشبه خطوات قوائم الخيول التي تخبط الأرض وتصهل من كل صوب، وكان صوتها هو

الذي يسمع في المكان فقط، تجرأ ذلك العجوز الذي يجسد القنصل على استعادة هدوئه من غضبه المتصاعد، ليبدو وكأنه في حالة ثوران بركاني، أو مثل ثور هائج، قال ناهضا من كرسيه وجسده الهزيل ينخر من الجهد الذي كلفته تلك الصدمة ونظراتها المعذبة:

- أنا لا أكاد أصدق عينَيَّ، أشعر بيأس شديد مما يحدث قالها وهو يقبض على عينيه من الألم والخيبة...لكن مريم بودي ارتأت أن تخفف عنه الحمل لتقول بهدوء، وكأنها تحوز على جميع الوقت أمامها:

- لا عليك حضرة القنصل، في كل مكان يكمن الشر، فالنفس البشرية تميل دائما إلى الهوى عندما يعبث برأسها قلة الحيلة.

- القنصل: نعم صحيح هناك نوع من الحقيقة في كلامك، لكن في بيت الرب ممنوع حدوث مثل هذه الانحرافات، ولكن على ما يبدو بأن النفس البشرية أمارة بالسوء. عمدت مريم بودي على موافقة كلامه، لكن الساعة الآن كانت كل ما يجول برأسها لتنطق معلنة عن ختام الحديث:

- نعم يبدو ذلك، والآن يجب أن أذهب لدي قضية لأحلها.

القنصل: نعم تفضلي فليباركك الرب يا بنيتي.

بحذر شديد شقت مريم بودي طريقها في ضوء القمر الساطع الذي يشبه القنديل على مائدة العشاء، أو مشعل من القرون الوسطى، أخذت خطواتها تحط على الأرض بطريقة عشوائية، لتلمح أخيرا باب الدير الضخم قبالتها، كان بابه دائما مفتوحا مثل الملجأ الذي يمد يديه لاستقبالك مشرعا بابه لليتامى والمتشردين. ها نحن ذا.. قالتها وهي تطالع في البوابة قبل أن تدخل. بمجرد ما إن دخلت لمحت شخصا ما يركض بسرعة باتجاه الساحة الخلفية أين يوجد المعمل. يا لها من صدفة غريبة، مشت مريم بودي على أصابع قدميها، وهي تتبع ذلك الشخص حتى ولج إلى المعمل الذي كان خاليا إلا من رجل كان يدير ظهره، والآخر الذي دخل لتوه، كشف الشخص الآخر عن ردائه لتتبين بأنه شخص تعرفه، إنها مديرة الدير، أو كما يطلق عليها الراهبة الأم، يبدو بأنها تتكلم مع ذلك االشخص الذي يدير ظهره لها، ليلتفت وتتعرف عليه مريم بودي: إنه نفس الشخص ألفونسو دي لاباربرا. استطاعت أن تقتطف أذناها بعض الكلام الذي يتناولانه:

- مديرة الدير: كل دقيقة تفلت منا تقود الشرطة إلينا في الجهة المقابلة، يجب أن ننهي كل شيء الليلة،

قالتها رئيسة الدير بنظرة خوف وتحدٍ، أنا لا أريد أن أكمل ما تبقى من حياتي في سجن ما لعين.

- ألفونسو: لقد رتبت كل شيء، الحمولة ستنقل الليلة... تعالي معي. تبعتهم مريم بودي ليتبين لها بأنهم قد اختاروا الباب الثانية للدير المؤدية للكاتدرائية، تسللت خلفهم بكل هدوء وثبات وتخفٍ، رأت من بعيد الراهبة الأم قد أخرجت المفتاح الذي لطالما بحثت عنه المحققة لذلك الباب الصغير للكنيسة التي كان يحتوي على وثائق مهمة بحسب ما قالتها عندما اطمأنت من أنه ليس هناك من يتبعها، قررت أن تلبس رداء الشجاعة وتلج من ذلك الباب هي أيضا، لكن بمجرد أن دخلت هربت شهقة من فمها من هول المنظر المدهش، لتتأكد مرة أخرى من أن كل ما كان يدور في دماغها حقيقة محضا هذا كل ما استطاعت مريم بودي سماعه ورؤيته قبل أن تلمح ظلا من ورائها، كانت على وشك الالتفاف لتتهاوى كغصن هش وتفقد الوعي في تلك الثانية مغشيا عليها من أثر الضربة.

أفاقت مريم بودي على قشعريرة جلدها بفعل النسيم الخفيف الذي ولج من النافذة الصغيرة الواقعة في تلك الغرفة الصغيرة، ورائحة الندى تعم المكان، فتحت عينيها بضعف لتسترجع كل ما مرت به، لتلمح ذاك الرجل الأوروبي جالسا في كرسيه قبالتها، يطالع تفاصيل ملامحها

مبتسما ابتسامته الجانبية اللعينة، وغليونه في يده، طالعته ناظرة له، وعيناها كالسهم، بقيا كذلك لثوانٍ حتى ظنت بأنه لن يتكلم، فقال:

- آسف على الضربة، أنا لا أحبذ العنف خصوصا على امرأة فأنا جانتلمان، قالها وهو يضحك، وأنا من مناصري المرأة.

- مريم بودي: مادمت كذلك فك وثاقي، لترمقه بنظرة حامقة.

- كنت أود ذلك، لكن أنا ذاهب، يؤسفني ما حدث بيننا، وما يؤسفني أيضا هو تدخلك في عملي الذي ستجنين نتائجه في الدقائق القادمة، أكمل كلامه وهو يضع مسدسه في جيب بنطاله ماشيا باتجاه حقيبة كبيرة، أخذها وهو يتكلم بانتصار، نعم هذا الشيء يستحق كل التضحيات.

- مريم بودي: هذا الشيء ليس لك، إنه سرقة لثروات شعوب، ونهب لمواردهم. قالتها مريم بودي بحنق. ليرد عليها وكأنها قالت نكتة:

- يا لك من حمقاء، ألا تفهمين بأن دول هذه المناطق هي من تنهب ثروات شعبها. نحن مافيا التهريب كما تحبون أن تطلقوا علينا، لسنا سوى فواعل جديدة ازدهرت في

ظل المناخ الفاسد في هذه المناطق، والآن اصمتي... ذهب باتجاهها وهو يغلق فمها بملصق ما. إلى اللقاء عزيزتي في لقاء قادم ربما؟ رفع حاجبه وغمز لها مغادرا بسخرية. بمجرد أن غادر...

دلجت بمكانه هيلين تلك الراهبة التي كانت تبتسم بتعالٍ كلما لمحتها. لتقول بنفس نبرة التعالي:

- أتعرفين بأنني لم ألاطفك منذ رأيتك أيتها الشرطية، لقد أفسدت سنين عملنا كله، وبسببك سنضطر إلى مغادرة مخبئنا. بالمناسبة أنا لم أحب هذا المكان أبدا، نعم لقد أسديت لي صنيعا نوعا ما، ثم أخرجت مسدسها باتجاه رأس المحققة فحاولت التحرك للتكلم، ما دفع هيلين لإزالة الشريط اللاصق من فم المحققة.

- مريم بودي: أنا أعلم بأنك أنت من قتل الكاهن، والبواب أيضا، قالتها مريم بودي وهي تبتسم لنظرات الدهشة التي علت وجه هيلين.

- هيلين: هذا السيناريو يدهشني، أنت لا تملكين أي دليل، لذا يمكنك الاحتفاظ بترهاتك لنفسك. ظهرت ابتسامة على وجه مريم بودي لتكمل:

- نظرات عينيك المليئة بالتعالي، وكأنك أفضل من هذا المكان، طريقة لبسك لطرحة الراهبات بالطريقة المائلة وهذا خطأ، طلاء أظافرك الذي يعد محرما

وممنوعا لارتدائه في قوانين الراهبات، الدبابيس التي فقدتها في مسرح الجريمة، ونذرك الذي لم تقومي به في أي كنيسة، وهذا ما تأكدت منه وخصوصا أداة الجريمة، أو علي القول صليب التمثال الواقع فوق النافورة، والذي لا تعرفين أين موضعه، فالصليب عادة يوضع في اليد اليمنى لتمثال السيدة العذراء، ولكنك في كل مرة تقومين بجريمة قتل تغيرين مكانه في اليد اليسرى، انفتح فاه هيلين، مريم بودي وهي مستمتعة، هذا يرجع لثقتك الزائدة في نفسك كقاتلة، أم لعدم خبرتك في المجال الديني المسيحي والذي يؤكد نظريتي أنك لست راهبة حقيقية. عمدت أولا لتشتيت الانتباه من حولك، إلقاء اللوم على إيميلي المسكينة وضعت زجاج خمر في مسرح الجريمة لكي يتبين بأن المجرمة هي إيميلي لأنه حسب سجلها فقد كانت تعاني من الإدمان في وقت مضى لكن اختبار الكحول قد أنصفها، ودمها كان خاليا من أية قطرة لكنك لم ترضي بهذا الشيء فقط أجبرت نورة على الشهادة معك ضد إيميلي عند رؤيتها في الرواق تلك الليلة. وقد استدرجت ذلك البواب إلى الغابة لتنفردي به وتقتليه بنفس الصليب، لكن لم أفهم لمَ قتلت البواب فقد كان متعاونا معكم، رمقتها هيلين بنظرة جانبية لها معنى واحد الاعتراف:

- ذلك الكاهن السمين الذي ليس له فائدة سوى الأكل من سوء حظه أنه كان في المكان والساعة الغير مناسبين، نعم قتلته لأنه اكتشف بأننا نخبئ الذهب والألماس في الكاتدرائية لقد استحق ما لحق به. أما الثرثارة إيميلي كنت أحبها نوعا ما فهي الوحيدة التي كنت أثرثر معها، لكنني في ليلة ما قلت كلمة ما كان يجب أن أتفوه بها، دخلت بذور الشك لنفس إيميلي ما دفعها للقيام بعمل محققة صغيرة، لكن ذلك لم يدم طويلا، فقد تم التخلص منها من طرف شخص آخر للأسف سبقني إليها الحارس الطماع، الذي لم يشبع أبدا من أكل أموالنا كما يأكل الطعام، أصبح يحاول دائما الحصول على المزيد والمزيد من الأموال، والابتزاز الذي كان يقوم به كان القطرة التي أفاضت الكأس، لم نكن نسمح بمثل هذه التصرفات. ثم لوحت بمسدسها باتجاه جسد مريم بودي المترامي في الأرض، وقالت:

- شكرا على الملاحظة المتعلقة بالصليب، سآخذ بها في المرة القادمة، قالتها وهي تبتسم، وتحرك أصبعها على الزناد... لن تكون هناك مرة أخرى أيتها الحقيرة... صوت ذكوري تخلل لمسامع مريم بودي قبل أن تغلق عينيها بخوف معلنة عن استقبالها للموت، رعشة خفيفة مسببة للقشعريرة تخللت جسد مريم بودي، لقد حدث

كل شيء بثانية، أو دقائق لا تعرف كم بالتدقيق، فتحت عينيها مرة أخرى لترى جسد هيلين يفرش الأرض كالسجادة، وانفتحت عقدة يديها ورجليها لتتحرك للوراء، لتلمح مارشملو واقفا أمامها بابتسامة تشع بالحياة:

- الحمدلله على سلامتك سيدتي.

- مريم بودي: كيف وجدتني؟

- مارشملو: لقد ألصقت بحقيبتك جهاز بي دي س قالها بابتسامة بلهاء.

- مريم بودي بتدارك سريع ناهضة من مكانها على عجلة: يا إلهي، اتبعني، وفرت راكضة.. ذلك الحقير سهرب يجب أن نمنعه.مارشملو لاهثا:

- من، ألفونسو؟

- مريم بودي بنفس النبرة اللاهثة التي تتقاسمها مع مارشملو: نعم هل تصدق أنه يقود عصابة إجرامية لتهريب الذهب والألماس من الصحراء الإفريقية الكبرى، قالتها وهي مستمرة بالركض .

- مارشملو: نعم سيدتي لقد قبضنا عليه وهو يحاول الفرار من فوق الجسر بطائرة هليكوبتر، لكن رجالنا كانوا محاوطين المكان كالحصن تماما، قبضوا على كل أتباعه بمن فيهم مديرة الدير، وهما يحملان حقائب محملة بسبائك الذهب والألماس... قالها بلهثه في صف واحد.

مريم بودي وقد قضى عليها الإعياء نتيجة للجهد الذي اكتسبته من الركض:

- لمَ لم تقل لي من قبل؟ لمَ تركتني أجري؟ اوفف.. يا إلهي ما أغباك، قالتها بحنق ممسكة بقلبها. ليرد عليها مسرعا:

- آسف، لم تتركي لي المجال.

- مريم بودي: اتبعني.. لينطق بقلة حيلة مثل قطيع يساق للذبح:

- وهل لي غير ذلك؟ رمقته بنظرة عرف معناها وصمت.

عمدت مريم بوري إلى إخبار الجميع بالدير عما جرى، وما كان يدور في طيلة الخمس سنوات الماضية في ذلك المكان، فوقع الصدمة والدهشة كان ليكون أخف من أن يخبرهم ضباط البوليس بذلك، بعد بكاء ونحيب ودهشات عمت المكان ذلك اليوم... وصلتها دعوة في صباح باكر عبر البريد بعد الحادثة بأسبوع من طرف سفارة الفاتيكان لتعيين الأم الجديدة للدير، وقد طلب منها أن تعطي كلمة وتلخيصا للأحداث التي غمرت الدير، والتي الآن تتناقلها ألسنة الصحف كالنار في الهشيم، قبلت مريم بودي الدعوة بكل حب وصدر رحب، فقد كان

ينقصها شيء ما لم يكتمل في تلك القضية، ووجب أن تتبع ضميرها بكل تأكيد.

الخاتمة

غريبة هي الحياة، فقد ظنت مريم بودي بأنها لن تعيش لترى هذه القضية محلولة عند تعرضها للقتل من طرف تلك الراهبة المجنونة، لكنها اليوم تعيش لتحضر فصلا جديدا وولادة جديدة لذلك الدير، وتلك الكاتدرائية القائمة على سفح جبل، كانت تحفظ ملامحها للمرة الأخيرة، كأنها تودها، كان الوقت قد تجاوز الظهيرة، وآن لها الأوان أن تلج للكاتدرائية لحضور مراسيم تتويج الأم الجديدة لذلك الدير.. لقد كانت كاثرين الراهبة المسؤولة التي لطالما رأت في خلدها بأنها هي من تصلح لهذا المنصب، كأنما خلقت له وخلق لها، لقد كانت مريم بودي على يقين بأنها فعلت الصواب عندما كتمت عن الشرطة بأن كاثرين كانت متورطة في مقتل إيميلي، لقد كان حادثا هذا ما تأكدت منه بالفعل، لقد كانت كاثرين تحب الدير وكأنه كل حياتها وعمدت بطريقتها الخاصة على الحفاظ على سمعته والدفاع عنه ضد كل غريب، ملامحها المرتعبة والشك الذي دخل في حياتها كان لابد أن ينتهي أخيرا، لقد سمعت عن المحادثة التي تم تقاذف الاتهامات فيها على طاولة العشاء ذلك اليوم، هذا ما عزز نظريتها بأنه يوجد شخص أو أشخاص متورطون في شيئ سيئ،

ولسوء حظ إيميلي المسكينة أنها كانت في الساعة الغلط لأنه عندما لمحت ظلها كاثرين فقد تراءى لها بأنها الشخص المنشود، ذلك اللص أو القاتل المتربص بديرها الذي تقدسه لكن وقع الصدمة الذي وقع عليها عند علمها بأن التي ترقد أمامها كانت إيميلي، كان كبيرا لدرجة أنها أتت لي في حالة هستيرية، واحتجت لوقت طويل لأستخرج منها حقيقة ما حدث فعلا، والتأكد من نيتها حتى بعد اعترافها، لم تتمكن من التغلب على أثر الصدمة، وقد احتاجت لوقت معتبر لتتدارك نفسها ورباطة جأشها، ما ساعدها على التخطي من تلك الحادثة هو إيمانها القاطع بأنها الشخص الوحيد في تلك الإدارة الدينية، الذي يحاول ويكافح من أجل المحافظة على سمعة الدير...

بعد اختتام مراسيم التتويج والترسيم النهائية، قام سفير الفاتيكان بتهنئة الأم الجديدة، وقام بالترحيب بالمحققة طالبا منها إلقاء كلمة، والتحدث عن القضية التي كانت أعين وعدسات، وأقلام الصحافة المحلية والعالمية موجودة في كاتدرائية السيدة الإفريقية ذاك اليوم حاضرة من أجلها .

دفلت مريم بودي بقامتها المنتصبة ووجها المنحوت، يشير إلى ذلك الجمال العربي المميز، وتبعها مساعدها

مارشملو بنظرة فخر مطالعا جموع الصحافة التي كانت تنتظر كطفل جائع للحصول عى وجبته، مريم بودي تطالعهم بانتصار كملكة تعلن لشعبها الفوز بالحرب. عم صمت جنائزي طويل قبل أن تقرر التكلم:

- أول شيء قلته عندما لمحت الكاتدرائية لأول مرة هو تساؤل، لقد قلت بالحرف الواحد: كيف يجرؤ أحد ما على تعكير سلام هذه الكنيسة العريقة، وأنا كلي ثقة بأن الكاتدرائية سيكون لها الكلمة الأخيرة في نهاية الأمر، وها أنا اليوم أمامكم أروي لكم بلسان الكاتدرائية عما حدث بالتفصيل، لكن اسمحلوا لي أن آخذكم إلى منطقة صحراوية تبعد عنا بآلاف الكيلومترات جنوبا، إلى المنطقة التي تسمى بالساحل الإفريقي أو الصحراء الإفريقية الكبرى، منطقة من مناطق العالم الأكثر ثراء برواسب الألماس والذهب، فعلاقة هذه الأخيرة بالساحل وإفريقيا عموما، علاقة غير قابلة للانفصال.هل تعلمون بأن المثال الذي يقول: الجمال هو لعنة، نعم في الكثير من الحالات، وهذا المثال يدعم قضيتنا جدا، قاطعها صحفي:

- لكن هذه المنطقة من أفقر المناطق بالعالم. فقاطعته بدورها بحزم:

- بالرغم من أنها صاحبة الموارد الطبيعية الضخمة. وأكملت مخرصة ذلك الصحفي، صعوبة الاستثمارات

وغيرها في مجال التنمية، جعلت من الواقع أكثر تعقيدا، لهذا استغلت بعض الجهات الإجرامية والجريمة المنظمة الضعف للبنى التحتية لهذه الدول. التقط المايكروفون صحفي شاب لمعت عيناه عندما تكلم:

- لقد تسرب للصحافة بأنه كان هناك ذهب مهرب مخبأ في الكاتدرائية، هل هذا صحيح؟

- من هنا يمكننا مناقشة قضيتنا.. شبكت أيديها وبدأت في الاسترسال، كان الضحية الأولى عبارة عن كاهن فلسطيني الجنسية، عينته الفاتيكان لمدة خمس سنوات ونصف في الكاتدرائية الواقعة في أعالي العاصمة فوق باب الواد الملقبة بكتدرائية نوتروردام الإفريقية، لسوء حظ الكاهن أنه كان حاضرا في الساعة والمكان الخاطئين، لأنه شاهد من غرفته أشخاصا يحملون أشياء ثقيلة.. فذهب للاستفسار ليجد أحد الصناديق التي كانت محمولة موضوعة في ركن ما على الجنب أمام المحراب. فذهب ليلقي بنظرة على محتوى الصندوق فتفاجأ بأنه عبارة عن قطع من الذهب وحجيرات من الألماس، وقبل أن يفهم ما كان يجري، إذ به يتلقى ضربة كانت سببا في هلاكه، أداة القتل كانت عبارة عن صليب لتمثال كان يوجد في الدير الأصفر الذي تسكنه الأخوات بالقرب من الكنيسة، ووجدنا أدلة أخرى هي عبارة عن دبوس ورمل،

لم نفهم لماذا كان هناك رمل، ولكن عندما اتضح لنا الأمر هو الرمل الذي يلتصق بالحمولة التي تأتي من الصحراء الإفريقية من مناطق الذهب المحملة بكل الأنواع، فلا يمكننا أن ننسى بأن سهولة تهريبه، فالسوق السوداء تلعب دورا كبيرا في بيع الذهب بعيدا عن أنظار السلطة والدولة، انعدام الرقابة وضعف السلطة المركزية، فضلا عن كونه وسيلة مادية تسهل تشكيلها، وإذابتها وصهرها، مما يسهل تهريبها، ثم يقومون ببيعها في السوق السوداء تجنبا للضرائب.

نعود للقاتل الذي لم يكن سوى فتاة تتخفى في زي راهبة تدعى هيلين موريسكو، وما هي سوى عضو من أعضاء مافيا تهريب الذهب التي يسيطر عليها رجل الأعمال والمهرب الإيطالي ألفونسو دي لا باريرا. بالتعاون مع مديرة الدير السابقة، والذي استطعنا القبض عليهم عند محاولتهم للفرار في الساعة الثانية ليلا، هنا شهدت مريم بودي أكبر مسرحية تحبها، وهي عندما تشغل أفواه الجميع، وتكون نظرات الإعجاب مسلطة عليها هي فقط. فأكملت بفخر تقول:

- أما الجريمة الثانية، فكانت للبواب الذي كان يشتغل في الدير والذي أصبح مليونيرا بسببه، فقد تغيب هو الآخر لثلاثة أشهر عن العمل، والذي وجدت جثته

بالقرب من غابة بوشاوي، وقد قتل لأنه كان مشاركا في هذه الجماعة التي لم يعجبها طمعه الزائد، الطمع والجشع الشيئان اللذان يفسدان الإنسان، ولكن العصابة لم تكن متساهلة مع العاصين، فقاموا بإبادته، أما الجريمة الثالثة والتي تأسفت جدا لحدوثها، هي جريمة قتل الراهبة إيميلي بوكين، وهي في عز شبابها، لأنها على ما يبدو اكتشفت كل ما يحدث في الدير لشدة ذكائها وفطنتها، والتي قامت بنحر عنقها القاتلة هيلين، هذا ما استطعت أن أنتزعه من اعترافها.

وفي الأخير..

أيها السادة الحضور، لقد استطعنا الكشف عن غطاء لجماعة منظمة لتهريب الذهب والألماس من الساحل الإفريقي إلى الجزائر العاصمة، تهريب هذه الموارد وهو ما يحرم هذه الحكومات من عوائد الضرائب التي هي في أمس الحاجة إليها. يستغلون الدول الساحلية لجمع ونقل وتهريب، فهذه المنطقة مطمع لكافة الجماعات الإجرامية. ونحن نشعر بالقلق تجاه مستقبل الذهب في الساحل، خصوصا وأنهم يستغلون الأطفال أو انتشار ظاهرة عمل الأطفال في مناجم الذهب، هذه الجماعات تستغل أيضا ارتفاع معدلات البطالة، وعدم استقرار هذه الدول، لذا تتزايد الجريمة واللصوصية، وعدم قدرة

الدول على تحقيق الأمن والحماية، فتخضع هذه الجماعات العاملين بالمناجم لسيطرتها بما يعرف ضريبة الحماية. ختمت مريم بودي كلامها

بنفس واحد، وهي مصممة العينين كقائدة ثورية أعطت للتو للتاريخ أفضل خطاب. ثوانٍ قليلة، ودوت في القاعة أصوات التصفيق، وهمسات الإعجاب والتميز التي جعلت مارشميلو مقهقها فرحا، انزاحت عن المقدمة شاكرة الجميع ومودعة الراهبات.

- شكرا لك، همست كاثرين في أذن مريم بودي وهي تعانقها للوداع الأخير. لترد عليها هذه الأخيرة قبل أن تأخذ برجليها نحو باب الخروج:

- أنا أثق بك. ثم التفتت إلى مارشملو لتقول بوجه طفولي:

- هل هذا يعني أنني سأكمل عطلتي الصيفية الآن؟

- مارشملو: ليس بعد، فقد دعتك تعاونية منطقة الساحل للتكريم بسبب جهدك على الكشف عن قضية تهريب الذهب، قلبت مريم بودي عينيها بملل، لتجيب راكبة سيارتها السوداء ومغلقة الباب من ورائها بإحكام:

- لا أريد، اذهب نيابة عني، إلى اللقاء... لم تترك له الوقت ليجيبها... ثم لم يعد يسمع سوى صوت المحرك الذي ترك صداه في الأرجاء، والذي ظل يختفي رويدا

رويدا معلنا عن رحيلها... ففرت شفاه مارشملو بالدهشة عند سماعه صوت عجالات السيارة وهي تعلن عن رحيلها، ليبتسم ابتسامة بلهاء تعبر عن الفخر والذكاء الذي استطاعت هذه المرأة أن تتميز به.

تمت

هاجر غنيات: كاتبة جزائرية. حائزة على شهادة الماستر في العلوم السياسية.

كانت سيارات الشرطة تحيط المكان مثل الحصن من كل مداخله، ورجال المباحث بالزي الأزرق الليلي، أزرق منتصف الليل أو الأزرق النيلي الذي يشبه لون السماء في ليلة اكتمال القمر، دلجت مريم بودي إلى الدير بمشيتها المؤججة بالسرعة إلى أن وصلت إلى ما وراء الدير المكان الذي شهد الليلة الماضية أعنف جرائم القتل في تلك الرقعة الخضراء التي كانت واقفة تتأمل جمالها مساء البارحة فقط لتتحول بعد سويعات لرقعة دموية حمراء، لمحت وجود جميع الراهبات هناك اللاتي كن يتشاركن نفس الوقفة المرتبة مثل كلاب صيد جيدة التدريب، ينظرون لمكان الجثة المغطاة بالإزار الأبيض وكل عين لها شعور مختلف بعمرها، الحزن، الخيبة، الجمود، الدموع الحداد الخوف، الهلع، والنظرات الماكرة ...؟ ".

ISBN : 978-9931-06-742-9

9 789931 067429

خيال

khayaleditions@gmail.com